ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٧ ، السنـــــة : ٤٦

رجب ١٤٤٣هـ ، فبراير – مارس ٢٠٢٢م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : http://www.darululoom-deoband.com/arabic/magazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- ألوان من المضايقات يعانيها الأقلية المسلمة في الهند — التحرير — ٣

كلمة العدد

- أقلوا عليهم لا أبًا لأبيكم ... — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ١١

دراسات إسلامية

- القيم العُليا للفكر الإسلامي — الأستاذ أنور الجندي — ١٦
- من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند — الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله — ٢٢
- العقيدة الدينية وأثرها في تربية النشء — الدكتور محمد غلاب — ٢٦
- كيف انتشر الإسلام عند فتح مكة؟ — الشيخ الجليل المحقق حبيب الرحمن العثماني الديوبندي — ٣١
- الإسراء والمعراج وأثر ذكراهما في نفوسنا في الظروف الحالية — الدكتور محمد سلام مدكور — ٤٠
- الإسراء والمعراج دراسة دينية علمية — الأستاذ محمد أحمد بدوي — ٤٧

محليات

- محاولات مشؤومة لوضع التمثال في مصلى بـ«مثورا» وتطهيره بماء «غنغا» — الطالب عاذب أشرف الأعظمي — ٥٤

إشراقة

- نظرتان إلى الدنيا — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

ألوان من المضايقات يعانيها الأقلية المسلمة في الهند

تعرضت وتتعرض الأقلية المسلمة الهندية لألوان من المضايقات التي أصبحت لها كالماء والهواء مما لابد منه لهم ليعيشوا أويحاولوا العيش على الأرض التي حكموها قرابة ثمانية قرونٍ، وسقوا بدمائهم و دموعهم كل شبرٍ من أشبارها، وحرَّروها من أيدي الاستعمار الإنجليزي الغاشم قبل ما ينيف عن سبعة قرون من الزمان. ومن أبشع وأحدث صور المضايقات ما يعانيه المسلمون في مدينة «غوروغرام» المتاخمة للعاصمة الهندية: دهلي، والتي يشكل المسلمون فيها نحو خمسٍ في المئة من سكانها. ومعظم المسلمين في هذه المدينة ممن يشتغلون في ورشات السيارات أو المصانع التي لايرخص أصحابها -ومعظمهم هندوس- للعمال المسلمين فيها إلا لمدة قليلة من فترة الاستراحة في العمل، ويستغلها المسلمون لأداء صلاة الجمعة في الأماكن المخصصة لها من قبل السلطات المحلية. فإن المسلمين يؤدون الصلوات الخمس في المصليات الصغيرة أو في بيوتهم أو في أماكن عملهم، وأما صلاة الجمعة التي تتطلب التجمع والخطبة؛ فإنهم يتجمعون لأدائها في هذه الأماكن البالغ عددها (٣٧) مكانًا خصصته لهم السلطات المحلية لأداء صلاة الجمعة في العراء، وفق مصالحة توصل إليها سكان المنطقة من المسلمين وغيرهم والسلطات المحلية عام ٢٠١٩م. وهذه الأماكن ليست في التجمعات السكانية الهندوسية؛ فإن معظمها في الأماكن الشاغرة من السكان، وحول المصانع والشركات.

والجدير بالإشارة أن المسلمين لايؤدون صلاة الجمعة في هذه الأماكن العارية من السقوف والبناء عن رغبة وحرصٍ عليها، وإنما يضطرون إليها اضطرارًا؛ فقد حاولوا غير مرة استصدار الرخصة لإقامة مسجد أو جامع في هذه المنطقة؛ ولكن السلطات المحلية أبت، و زرعت عراقيل وعقبات في ذلك، بينما سمحت للأديان الأخرى أن تقيم معابدها في المنطقة.

كما يطالب المسلمون في المنطقة السلطات المحلية بردّ الأراضي الوقفية الإسلامية - التي استولى عليها المؤسسات الرسمية- إليهم- المسلمين- حتى يتسنى لهم إقامة المساجد والجوامع، فيتَّقوا بذلك لفح ريح السموم والبرد القارس في جانب، وفي جانب أخر يصبحوا على منجاةٍ من سموم الطائفية التي ينفثها كل يوم جماعات الهندوتفا المتطرفة ضدهم.فقد تعوَّد أعضاء المنظمات الهندوسية المتشددة أن يتجمعوا أيام الجمعة في الأماكن المخصصة لصلاة الجمعة، ويقيموا فيها طقوسًا دينية لهم، ويرفعوا هتافات معادية للمسلمين، وربما حملوا المسلمين على النداء بما يخالف دينهم وعقيدتهم إذا ما رغبوا في إقامة الجمعة في هذه المناطق. ومن شنشنة أهل الباطل أنهم إذا عجزوا عن تكميم أفواه الناطقين بالحق بما يستطيعون من تخويفٍ وترهيبٍ، نفخوا في أبواق اللغو والجعجعة. وما أشبه هؤلاء بمشركي مكة؛ فإنهم كانوا- إذا قرأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورفع صوته - كما روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- طردوا الناس عنه، وقالوا لهم: لا تسمعوا له، والغوا فيه. فكانوا يأتون بالمكاء والصفير والصياح وإنشاد الشعر والأراجيز وما يحضرهم من الأقوال التي يصخبون بها». ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]. فما أشبه الليل بالبارحة. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة السادسة صباحًا من يوم السبت: ٢٠/جمادى الأولى ١٤٤٣هـ = ٢٥/ديسمبر ٢٠٢١م).

أقلوا عليهم لا أبًا لأبيكم ...

«إنها بوابة من بوابات الإرهاب».

«توشك أن تكون مرجعيتها وثنية».

«سلوكهم سلوك تصوفي، ليس له صلة بالعلم النافع والعمل الصالح».

«تمـــارس التجنيـــد والتفـــريخ للجماعـــات الإرهابية تحت غطاء العمل الدعوي».

«من حسنات مقاطعة الدول الأربع الداعية لمكافحة الإرهاب للنظام القطري منع أعضاء جماعة التبليغ من الالتقاء بزعمائها في مركز التجنيد، وتوزيع المهمات في الدوحة».

«إن أعضاء جماعة التبليغ لايدينون بالولاء للدولة التي يعيشون فيها وإنما لأمرائهم ، مشكلين بذلك دولةً داخل دولةٍ».

«فلا تكاد تجد جماعة أخرى من الجماعات الإرهابية أو غيرها كالإخوان والتكفير والهجرة إلا استفادت منها في تجنيد الشباب».

«إن كثيرًا من زعامات الحركات الإرهابية والتكفيرية كانت بداياتهم في جماعة التبليغ».

«التقارب الشديد بين قادة الجماعة من الهنود وحكومة الإرهاب في إيران»؟

«الأصول الستة التي تعتمدها الجماعة منهجًا، في الأصل من اختراع بديع الزمان النورسي التركي، و أخذها محمد إلياس عنه».

«جماعة منحرفة عن الدين الإسلامي».

«قليلة العلم وضعيفة الفقه بدين الله».

«جماعة دراويش».

«الجماعة في أصل نشأتها جماعة قبورية موغلة في التصوف، والجهل، والخزعبلات».

هذه بعض المزاعم والاتهامات التي يكيلها اليوم لجماعة الدعوة وغيرها من الجماعات الدينية والإسلامية الناشطة سواء على الصعيد الداخلي أو في المحيط العالمي- بعضُ علماء السعودية و المسؤولين في وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية والصحف السعودية الأقرب والألصق بالحكومة السعودية.

ذلك مبلغهم من العلم:

أقول – والقلب يعصره الأسى-: إن القيادات الدينية السعودية التي برزت اليوم للذود عن القرار الوزاري باعتبارجماعة الدعوة جماعةً إرهابيةً، في جهلٍ مطبقٍ بجماعة الدعوة والتبليغ، ونجد على القنوات السعودية، ومواقع التواصل الاجتماعي سيلًا من هؤلاء الذين لايميز كثير منهم الشمال من

اليمين في أمر جماعة الدعوة والتبليغ؛ بل يجمعون ما يجدون كحاطب ليل. لقد قضيت عجبي حين سمعت قياديًّا دينيًّا في مقابلة بثتها إحدى القنوات السعودية حين سأله مقدم البرنامج عن قرار الوزارة الحديث، فاندفع ليلقي الضوء على هذه الجماعة نشأتها ونشاطاتها رجمًا بالغيب من مكان بعيد، فقال: «هذه الجماعة أنشئت أو أنشأها رجل اسمه محمد بن إدريس الكاندهلوي في الهند قبل تقريبًا مئة سنة من الآن».

رجاؤنا من الشيخ - هدانا الله وإياه- أن يبدأ - قبل كيل هذه الاتهامات والافتراءات من غير روية وتفكير للجماعة- بدراستها، والتعرف على مؤسسها، وأهدافها، ونشاطاتها، وإنجازاتها؛ فإن مؤسس هذه الجماعة هو الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي (١٣٠٢-١٣٦٣هـ/١٨٨٥-١٩٤٤م)، لا محمد بن إدريس الكاندهلوي (١٣١٧-١٣٩٤هـ/١٨٩٨-١٩٧٤م)، وهو أمر لايخفى على أحد له مسحة من علم بتاريخ الجماعة. فما أشده جرأةً على التمويه، وتعلقًا بالظنون والتخرصات، أو اشتغالاً بالخيالات المجردة؟! ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].

وهذا نموذج واحدٌ - وما أكثره - من نماذج المتصدين لاتهام الجماعة والافتراء عليها بما هي براء منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب. ولو ذهبنا نسرد أمثال ذلك لملأنا صفحات.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الجماعة وضع نواتها في الهند العالم الداعية الشيخ محمد إلياس في أوائل القرن الماضي. ومنذ الأربعينيات في القرن الماضي وسَّعت هذه الجماعة نشاطاتها إلى العالم الإسلامي بدءًا بالمملكة العربية السعودية بعد أن سمح لها مؤسس الدولة جلالة الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله (١٢٩٢-١٣٧٣هـ/١٨٧٦-١٩٥٣م)، ودعا لها سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١٣١١-١٣٨٩هـ/١٨٩٣-١٩٦٩م). ونسوق فيما يلي بعض الخطابات التي يتجلى منها مواقف أبرز القيادات الدينية والسياسية السعودية من الجماعة في الماضي.

يقول جلالة الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله في خطابٍ له إلى كل من محمد احتشام ومحمد إلياس- رحمهما الله- وقد شرحَا في خطاب لهما إلى جلالته مبادئ جماعة الدعوة وأهدافها، ونحو ذلك:

«بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية الرقم: ٢١/٢/١١١

ديوان جلالة الملك التاريخ: ١٣٥٧/٢/٣هـ

حضرة المكرمين/ محمد احتشام ومحمد إلياس سلمهما الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

إن جلالة مولاي الملك قد اطلع على كتابكم المرفوع لجلالته، وأمرني أن أشكركم على مساعيكم الطيبة في سبيل الدعوة إلى عقيدة السلف الصالح، وعلى خدماتكم الحسنة في هذا الشأن.

أسأل الله أن يوفقنا، وإياكم لما فيه الخير والصلاح.. والسلام.... ديوان جلالة الملك(جلاء الأذهان،ص ٨٩).

ويقول سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله- في خطاب له إلى علماء الأحساء و المقاطعة الشرقية في تاريخ ١٣٧٣/٥/١٩هـ:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن إبراهيم إلى من يراه من علماء الأحساء والمقاطعة الشرقية، جعلني الله وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى، ومن المعنيين المساعدين لمن على الدعوة إلى الله ينشط ويقوى، آمين.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد: فحامل هذا الكتاب سعيد بن محمد علي الباكستاني ورفقاؤه من جمعية التبليغ في باكستان. ومهمتهم العظة في المساجد، والإرشاد والحث والتحريض على التوحيد وحسن المعتقد، والحث على العلم بالكتاب والسنة مع التحذير من البدع، والخرافات من عبادة القبور، ودعاء الأموات، وغير ذلك من البدع والمنكرات. كتبت عنهم بذلك طلبًا لمساعدتهم من إخوانهم بالتمكين لهم من ذلك، سائلا الله تعالى أن يرزقهم حسن النية، والتوفيق للنطق بالحق والسلامة من الزلل، وأن ينفع بإرشادهم، وبيانهم؛ إنه على كل شيء قدير» (جلاء الأذهان،ص٩١).

وأما سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله (١٣٣٠-١٤٢٠هـ/١٩١٢-١٩٩٩م) فكتب إلى الأستاذ عوض بن عوض القحطاني -حفظه الله- برقم ١١٥٥/خ في تاريخ ١٣٩٩/٩/٥هـ ردًّا على كتابه إليه:

«وصلني كتابك الكريم، وفهمت ما شرحتم فيه، وما تضمنه السؤال عن جماعة التبليغ، وهل طريقتهم صحيحة؟ وهل هناك مانع من مشاركتهم فيما يقومون به من الدعوة والخروج معهم إلى آخره .... والجواب: قد اختلف الناس فيما ينقلون عنهم، فمن مادح وقادح، ولكننا تحققنا عنهم من كثير من إخواننا الثقات من أهل نجد وغيرهم، الذين صحبوهم في رحلات، وسافروا إليهم في الهند و باكستان، فلم يذكروا شيئًا يخل بالشرع المطهر أو يمنع من الخروج معهم، ومشاركتهم في الدعوة. وقد رأينا كثيرًا ممن صحبهم، وخرج معهم قد تأثر بهم، وحسنت حاله كثيرًا في دينه وأخلاقه، ورغبته في الآخرة. فعلى هذا لا أرى مانعًا من الخروج معهم، ومشاركتهم في الدعوة إلى الله؛ بل ينبغي لأهل العلم والبصيرة والعقيدة الطيبة أن يشاركوهم في ذلك، وأن يكملوا ما قد يقع من بعضهم من نقص

لما في سيرتهم وأعمالهم من التأثير العجيب على من صحبهم من المعروفين بالانحراف والفسق. (ثم أشار إلى خطاب الشيخ محمد بن إبراهيم) (جلاء الأذهان،ص ١٠٦).

وسأل سائلٌ الشيخَ ابن باز رحمه الله: نحن سكان في البادية منا من هو مستقر في هجرة، ومنا من هو يتبع حلاله، ويأتينا جماعة الدعوة للتبليغ، منهم من نعرفه شخصيًا، ونثق بصدق نيتهم إلا أنهم ليسوا علماء، ومنهم علماء، ويدعوننا للخروج للهجر التي حولنا، ويحددون لذلك أيامًا وأسابيع وأشهرًا، مع ملاحظتنا أن حلق الذكر التي تعمل عندنا ليس عليها أي اشتباه. هل يجوز الاستماع لهم أو الخروج معهم للهجر المجاورة أو خارج المملكة؟ نرجو من فضيلتكم التوضيح عن ذلك والكتابة لي لكوني مرسولًا من جماعتي، ولايقتنعون إلا بخطاب من فضيلتكم، جزاكم الله عنا، وعن كافة المسلمين خير الجزاء.

فأجاب رحمه الله: إذا كان المذكورون معروفين بالعقيدة الطيبة، والعلم والفضل، وحسن السيرة، فلا بأس بالتعاون معهم في الدعوة إلى الله سبحانه والتعليم والنصيحة لقول الله عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة:٢] وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» [رواه مسلم في الإمارة برقم ٣٥٠٩]. وفق الله الجميع. (مجموع فتاوى ابن باز٨/٣٠٨، ط: الشاملة).

ويقول الشيخ ابن باز في إملاء له على رسالة «إصلاح وإنصاف لا هدم ولا اعتساف» لصاحبها الشيخ يوسف بن عيسى الملاحي[1]: «فقد اطلعت على هذه الرسالة الموسومة بما سماها به صاحبها فضيلة الشيخ يوسف بن عيسى الملاحي «إصلاح وإنصاف، لا هدم ولا اعتساف» جديرة بما سماها به صاحبها، وذلك لأنه أوضح فيها حال الجماعة، ونفعهم الكبير في الدعوة إلى الله تعالى سبحانه وتوجيه الناس إلى الخير... وبين أنهم غير معصومين كغيرهم من الدعاة، وأهاب بإخوانهم القائمين بالدعوة إلى الله تعالى سبحانه، وغيرهم من أهل العلم أن ينصفوهم، ويشكروهم على ما قاموا به من الخير، وعلى صبرهم العظيم، وتحملهم المشاق الكبيرة في سبيل الدعوة إلى الله سبحانه، وأن يتعاونوا معهم في ذلك، وينبهوهم على ما قد يقع من بعضهم من الأخطاء عملًا بقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المائدة:٢]... (ثم ساق آيات وأحاديث) وقال: «وهؤلاء الجماعة قد عرفناهم

(١) ص ٤٢-٤٥، المطبوعة ضمن كتاب «جلاء الأذهان عما اشتبه في جماعة التبليغ لبعض الأخوان – مجموعة رسائل لكبار العلماء والمشايخ في المملكة العربية السعودية: تأليف: سماحة الشيخ أبوبكر جابر الجزائري المدرس بالمسجد النبوي الشريف وبالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقا، ط: المكتبة المحمدية، باكستان.

ومـن دهـر طويـل، واجتمعنـا بهـم غـير مـرةٍ في مكـة والمدينـة والريـاض، وسرّنـا مـا سـمعنا مـنهم مـن النـصح لله ولعبـاده، ودعـوة النـاس إلى الخـير، وإلى إيثار الآخرة، وعـدم الركـون إلى الـدنيا، والاشـتغال بها عما أوجب الله عليهم من الحق.

وقـد سـبقنا إلى تـزكيتهم والثنـاء عليهم سماحة شـيخنا الـشيخ محمـد بـن إبـراهيم آل الـشيخ مفتـي الـديار الـسعودية، ورئيس القـضاة في زمانـه- رحمـه الله- فـيما كتـب بـه إلى علـماء الأحـساء والمقاطعـة الشرقية مع رئيس جماعة التبليغ بالمدينة الشيخ سعيد ابن محمد وجماعته من المرافقين له، أوصاهم فيها بهم خـيرًا، وذكـر أن مهمـتهم العظـة في المـساجد، والإرشاد والحث على العمل بالكتاب والسنة مع التحـذير مـن البـدع والخرافـات مـن عبـادة القبـور، ودعـاء الأمـوات، وغـير ذلـك مـن البـدع والمنكرات...».

ثـم قـال رحمـه الله: «كتبـت عـنهم بـذلك طلبًـا لمساعدتهم من إخوانهم بالتمكن لهم من ذلك سائلا الله أن يـرزقهم حسن النية والتوفيق، للنطق بـالحق، والسلامة من الزلل، وأن ينفع بإرشادهم وبيانهم، إنه على كل شيء قدير». انتهى.

كما شهد عندي كثيرٌ من إخواننا الثقات الذي خـالطوهم، وسـافروا معـه إلى بلـدان كثـيرة بالـصبر والنشاط في الدعوة إلى الله، وتأثر الناس بهم، وكثرة من يهديه الله على أيديهم. فالواجب على أهل العلم والإيمان والدعاة إلى الحق إنصافهم، والتعاون معهم على الخير، وتنبيههم وغيرهم من الدعاة على ما قد يقع الخطأ عملا بالآيات والأحاديث السابقة...

وصـلى الله عـلى نبينـا محمـد وآلـه وصـحبه أجمعين.

الرئيس العام

لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

١٤٠٧/٨/١٧هـ.

وهـل رجـع الـشيخ ابـن بـاز -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- عـن أقوالـه هـذه وموقفـه مـن الجماعـة؟ يؤكـد كثـير مـن المطبلين للقرار الوزاري السعودي أنه رجع عنها. وهـذا رجـم بالغيب؛ فقـد صرح الـشيخ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- بأنه لم يرجع عن أقواله في الجماعة، فيقول في خطاب لـه إلى الـشيخ إبـراهيم عبـد الـرحمن الحـصين بالمدينـة المنورة بتاريخ ١٤٠٧/١/٢٧هـ:

«فـأخبركم أني لازلـت عـلى رأيـي في الجماعـة المذكورة فيما كتبته عنهم قديمًا وحديثًا من الكتابات الكثـيرة، ومـا كتبـه سـلفي شـيخنا الـشيخ محمـد بـن إبراهيم آل الشيخ- قدس الله روحه، ونور ضريحه- وما كتبه غيرنا من العلماء. وأيده جلالة الملك عبد العزيز -رحمه الله-، وجلالة الملك فهد- وفقه الله- فـيما كتبـه إلي؛ لأنهـم قـد نفـع الله بهـم نفعًـا كثـيرًا، وهدى بهم جمًّا غفيرًا... وأما ما نسبه المعارضون لهم عني من الرجوع عن رأيي فيهم فهو كذب علي؛ بل إني نـصحتهم، و وبختهم عـلى عملهـم ، وقلـت لهـم

فيما قلت:

أقلـوا عليهم لا أبًا لأبيكـــم

من اللوم أو سُدوا المكان الذي سدوا

وحرضتهم على كثرة الاجتماع بهم، والخروج معهم، وأوضحت لهم ما فيه من الفوائد. وطلبت مـنهم أن يتهمـوا الـرأي، وينظـروا في العواقـب ...الخ». (جلاء الأذهان،ص ١٢٤).

وقال الشيخ العثيمين (أبوعبد الله محمد بن صالح الوهبي التميمي١٣٤٧-١٤٢١هـ/١٩٢٩-٢٠٠١م) في معرض الرد على سؤال قائل: «يختلف الكثير من طلبة العلم في معاملة العاصي، فما التوجيه الصحيح جزاكم الله خيرًا؟».

«... وما أشد تأثير جماعة أهل الدعوة، الذين يسمون أنفسهم (أهل الدعوة والتبليغ)؟! ما أشد تـأثيرهم عـلى النـاس؟! وكـم مـن فاسـقٍ اهتـدى فأطاع؟! وكم من كافرٍ اهتدى فأسلم على أيديهم؛ لأنهم وسعوا الناس بحسن الأخلاق، فلذلك نحن نسأل الله أن يجعل إخواننا الذين أعطاهم الله العلم أن يعطيهم من أخلاق هؤلاء حتى ينفعوا الناس أكثر، وإن كان يؤخذ على جماعة الدعوة والتبليغ ما يؤخـذ، لكـنهم في حـسن الخلـق، والتـأثير بـسبب أخلاقهم لا أحد ينكر فضلهم، وقد رأيت كتابًا للشيخ عبد العزيز بن باز- حفظه الله- وجهه إلى شخصٍ كتب إليه ينتقد هؤلاء الجماعة، فقال في جملة رده:

أقلـوا عليهم لا أبًا لأبيكـم

من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

وحسن الخلق لاشك أن له تأثيرًا عظيمًا في استجابة الناس للداعي.

أما إذا رأوا الإنسان خشنًا؛ فإنهم يسبونه، ويذمونه على ما فيه من الأخلاق الشرعية، تجدهم مثلاً يسبونه على لحيته، واللحية أخلاق شرعية، ويسبونه على تقصير الثوب، يسبونه على المشي حافيًا» (مجموع فتاوى ورسائل ابن العثيمين ٣١٨/٢٦).

فلم يشنع هؤلاء المشايخ الكبار المأمونون على دينهم، وفتواهم على الجماعة، ولا اتهموها بالانحرافات الدينية العقدية، ولا بالإرهاب والتشدد والعنف، ولا أنها حاضنة إرهاب عابرة الحدود، ولا غيرها من التهم والافتراءات التي يكيلها لها اليوم الإعلام السعودي، وإنما كان إصلاح وإنصاف، لا هدم واعتساف. هذا كان شعار سلفنا الصالح. ولا أحد يبرئ الجماعة، ولا جميع أفرادها من العيوب و النقائص، فَيَرِدُ عليهم من الخلل والنقص ما يَرِدُ على غيرهم من بني البشر. والكمال لله تعالى، فأعضاؤها غير معصومين كغيرهم من الدعاة. كما نرى أنه يجب تنبيههم على الأخطاء التي قد تصدر من أفراد هذه الجماعة. وفعلًا قامت وتقوم به – على سبيل المثال- أعرق المرجعيات الدينية في شبه القارة الهندية، التي

يعتبرهـا المـسلمون في هـذه الـبلاد أوثـق مـصدرٍ للفتوى، ففتاواها حاسمة في الخلافات الدينية التي تشجر بينهم:

إذَا قالت حَذامِ فَصَدِّقُوها

فإنَّ القولَ ما قالَتْ حَذامِ

وهـذه المرجعيـة هـي الجامعـة الإسـلامية: دارالعلوم/ديوبند التي قامت، وتقوم بالإنكار على ما يصدر من بعض أفراد هذه الجماعة من أخطاء وعيوب.

على أن أعمال الجماعة كلها ظاهرة مكشوفة ومعلنة أمام أعين جميع الناس كما قيل:

فَسِرِّي كَإعلانِي وتِلكَ خَليقَتي

وظُلمةُ لَيلي مثلُ ضَوءِ نَهَارِي

والجماعة ليست وليدة الساعة، فهي موجودة بين أيدينا، وفي مرأى من العالم كله منذ نحو مئة سنة، منذ عهد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، وعهد الشيخ محمد إبراهيم آل الشيخ، وعهد الشيخ ابن باز، وعهد الشيخ العثيمين رحمهم الله جميعًا، وقد شاهدوها، وجربوها، وتحققوا منها، ومن أعمالها و نشاطاتها، وكانوا أدرى بها من علماء السعودية المعاصرين. ويالله العجب أن يقوم أحد بمعارضة مواقف هؤلاء الأفاضل بأقوال المعاصرين الذين لاتخفى مواقف كثير منهم مما تشهده المملكة العربية السعودية- وهي مهبط الوحي، ومثوى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وما يتعرض له المسلمون من النكبات و الويلات من جراء سياسات بعض دول العالم الإسلامي. فأين يقع علمُ هؤلاء المتأخرين ورأيهم من علم أولئك المشايخ الصالحين الناصحين، فهم أمناء على الدين، وعقيدة السلف، وأفكارهم ومنهجهم في فهم الإسلام وتطبيقه؟!

والواجب علينا، وخاصةً الدعاة أن يتَّزِنُوا في الأمور، ولايحكموا على الأفراد والجماعات إلا من منظارٍ دقيقٍ صحيحٍ سليمٍ، من غير إفراط ولا تفريط. وهل ينازع أحد في أن أعداءنا يتربصون بنا الدوائر ، ويتحينون الفرص للانقضاض على ديننا، و لِوَأد النشاطات والحركات الدعوية الإسلامية قبل أن تقوم على ساقها، وإحباط مفعولها في المجتمع إذا ما قامت أو حاولت القيام عليها. وكل ذلك يتطلب منا- بكل إلحاح- أن نحرص على جمع الكلمة بجانب الدعوة إلى كلمة التوحيد، ونلملم البيت الداخلي قبل أن يقتحمه العدو، ويعيث فيه فسادًا لايعلم عواقبه إلا الله تعالى. ويجب أن نصلح أخطاءنا، وأينا لايخطئ:

مَن الذِي مَا سَاءَ قَط

وَمَن لَه الحُسنَى فَقَط

(يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ)[يس:٢٦].

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

(تحريرًا في الساعة العاشرة صباحًا من يوم الثلاثاء: ١٦/جمادى الأولى١٤٤٣هـ الموافق ٢١/ديسمبر ٢٠٢١م).

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)

تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

كان المنافقون والمحتالون يناجون الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليزيدوا بذلك ثقة الناس بأنفسهم، وكانوا يتناجون في المجلس مناجاة وقحة، من عيب الناس، واغتيابهم، وشكواهم، فقيل: إن الذين يتناجون ويتشاورون خفيةً أكثر تشاورهم لا خير فيه، ولاحاجة إلى كتمان الأقوال الصادقة، و لا كيد فيها، وإذا كان لابد من الكتمان فليكتموا التصدق على الفقير؛ كيلا يستحيي من أخذه، أو أراد أن يجنب الجاهل الخطأ، ويعلمه الصواب والمسألة الصحيحة، فليكتمه كيلا يندم صاحبها على جهله بها، أو قاتل رجلان، والغضبان لايرضى بالصلح حال فورة الغضب، فليحتل أولا حيلة يقنعه بها، حتى يجوز استخدام التورية حينئذ. وانتهى إلى القول بأن من أتى هذه الأمور ابتغاء مرضاة الله تعالى، ولايشينه رياء أو غرض دنيوي، فله أجر جزيل.

وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

من اتضح له الحق، ثم خالف الرسول ﷺ، وشق لنفسه طريقًا، طاويًا كشحه عن سبيل المؤمنين، فإن مصيره إلى النار، كما فعل هذا السارق الذي مر ذكره، فبدلًا من يقرّ بذنبه ويتوب منه، فرَّ إلى مكة ولحق بالمشركين مخافة أن تقطع يده إذا بقي في المدينة.

فائدة: أخذ كبار العلماء من هذه الآية أن معارض إجماع الأمة ومنكره في نار جهنم، أي يجب القول بإجماع الأمة. وورد الحديث بأن يد الله على الجماعة، فمن شذ شذ في النار(١).

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

أي يغفر ما دون الشرك لمن يشاء، وأما الشرك فلن يغفره، وحيث كتب للمشرك العذاب، فالسرقة والاتهام - وإن كانا من الكبائر - ولكن لايبعد أن يغفر الله تعالى للسارق برحمته، فلما فرَّ هذا السارق من حكم الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولحق بالمشركين، زال احتمال الغفران والعفو.

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

فائدة: عُلِمَ منه أن الشرك لايقتصر على إشراك غير الله تعالى به في العبادة؛ بل يعم الشركُ إيثار حكم غير الله تعالى على حكمه.

فائدة: (ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا)؛ لأنه أعرض عن الله تعالى إعراضًا صريحًا، واتخذ من دون الله إلهًا، وأطاع الشيطان، واستغنى عن طاعة الله ورحمته، فكيف يستحق رحمة الله وغفرانه من ضل هذا الضلال البعيد؛ بل يجب أن يكون غفران مثله على خلاف الحكمة، ولذا أيَّس أمثال هؤلاء من المغفرة على الإطلاق، وأما المسلم فمهما اشتد ذنبه، فإن فساده ينحصر في أعماله، وأما عقيدته وعلاقته ورجاؤه فكلها باقٍ على ما هو عليه، فلابد أن يحظى بالمغفرة عاجلا أم آجلا، إذا أراد الله تعالى ذلك.

إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴿١١٨﴾

اتخذ هؤلاء المشركون آلهتهم أصناما سموها بأسماء الإناث، كالعزى ومناة ونائلة ونحوها، والحق أن المشركين يعبدون الشيطان اللعين، فإنه هو الذي أغواهم وصرفهم إلى ذلك. وعبادة الأصنام طاعة للشيطان وإرضاء له. والغرض منه بيان أن المشركين لاحظ لهم إلا الضلال الصريح والجهل الظاهر، ألا ترى أنه لا ضلال أشد من اتخاذ غير الله تعالى إلهًا، ثم من اتخذوه إلها؟ اتخذوا الأحجار التي لاحس فيها ولا حركة، وسموها بأسماء الإناث، ومن أغواهم إلى ذلك؟ أغواهم الشيطان اللعين، وهل بعد هذا ضلال وجهل؟ وهل يقبله إلا أسفه الناس وأقلهم عقلا؟

فائدة: أي حين لُعنَ الشيطان وطرد لعدم سجوده لآدم، قال: لقد هلكتُ، ولكن لأتخذن من عبادك وبني آدم مقدارًا معلومًا وحظًا كبيرًا. أي أضلهم وآخذهم إلى نار جنهم، كمامر في سورة الحجر وبني إسرائيل وغيرهما. والمعنى أن الشيطان – علاوة على أنه ملعون وطريد- عدو للإنسان وحاسد له منذ اليوم الأول. وقد صرَّح بعداوته وبغضائه.

فلا يتوهم أن الشيطان – وإن كان ضالا وخبيثًا على كل الوجوه - قد ينصح بعض الناس بما فيه خيره ونفعه؛ بل عُلِمَ أنه عدو من الأزل، فلايسوق بني آدم إلا إلى ما فيه ضلاله وهلاكه، فما أسفه وأجهل أن يطاع مثل هذا الضال والحاسد؟! ومعنى اتخاذه نصيبا مفروضًا: أن عبادك يجعلون لي نصيبًا من أموالهم، كما ينذر الناس للأصنام والجن وغيرهما.

وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴿١١٩﴾

أي أُضِلُّ كل من يقع في نصيبي عن الطريق المستقيم، وأمنّيهم بتحصيل الحياة الدنيا وشهواتها، وبأنه لاحساب ولاكتاب وغيرهما من أمور الآخرة، وألقّنهم أن يشقوا آذان الأنعام و يسيبوها للأصنام، ويغيروا ما خلق الله تعالى وقدر من الصور.

فائدة: كان الكفار يجعلون فصائل الغنم

والإبل لأصنامهم، ويشقون آذانها، ويجعلون فيها علامات ويسيبونها، وأما تغيير خلق الله تعالى فالإخصاء والوشم بغرز الإبرة في الجلد وذر النيلج، وتظفير أشعار الطفل تقربًا إلى أحد، ولابد للمسلم أن يتجنب ذلك كله، وحلق اللحية يدخل في هذا التغيير. وتغيير شيء من أحكام الله تعالى فظيع جدًا. واستحلال ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله تعالى مما يخرج صاحبه من الإسلام، فمن ابتلي بشيء من ذلك فليعلم أنه قد دخل في حظ الشيطان، الذي مر ذكره آنفًا.

يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

أي إذ علمتم ما عليه الشيطان من الخبث والشر والعداوة علمًا يقينًا، فلم يعد من شك في أن من انحرف عن معبوده سبحانه، ووافق الشيطان، فقد خسر خسرانًا مبينًا. ومواعيد الشيطان كلها خداع ومكر، وبالتالي مصير هؤلاء كلهم إلى النار، وهل إلى خروج منها من سبيل؟

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

أي من وقى نفسه شرور الشيطان، وآمن وعمل عملا صالحا كما أمر الله تعالى به، فإنهم في جنات خالدون، وهذا وعد الله تعالى، ومن أصدق من الله قيلا، فما أبعد ضلالا وأشد ضررًا الميل عن هذا الوعد الصادق إلى أكاذيب الشيطان.

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

(أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ) أي اليهود والنصارى كانوا يرون أنهم خاصة عباد الله تعالى، ولايؤاخذون على ما يؤاخذ عليه الخلقُ، وأن أنبياءهم يشفعون لهم، ويحصنونهم. والسفهاء من أهل الإسلام يرون هذا الرأي ويزعمون لأنفسهم هذا الزعم، فنبه الله تعالى على أن النجاة والثواب لايتوقفان على أمنية أحد وأمله، فمن جاء بالسيئة – أيًّا كان- أخذ عليها، ولايغني شفاعة أحد من عذاب الله تعالى، ولايخلص من أخذ الله تعالى إذا أخذ أحدًا إلا هو سبحانه، انظروا في مصائب الدنيا وأمراضها. ومن يعمل صالحا -وهو مؤمن- دخل الجنة، ويجزى أجره جزاء وفاقًا. والحاصل أن الثواب والعقاب يرجعان إلى الأعمال، لا إلى الآمال والأماني. فبرّئوا ساحتكم منها وانصرفوا إلى الأعمال، وتشجعوا عليها.

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

قد علِمَ أن العبرة عند الله تعالى بالأعمال، لا بالآمال الباطلة، هذه هي السنة المسلوكة في أهل الكتاب وفي غيرهم، وفيه تنويه بشأن أهل الإسلام

- أي الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- وبيان فضلهم، وذم أهل الكتاب وتقبيحهم. ثم صرّح بأنه لا أحد يداني في الدين مَن استسلم لله تعالى وأوامره، وأقبل على صالح الأعمال بقلبه، واتبع حق الاتباع ملةَ إبراهيم حنيفًا، واتخذه الله تعالى خليلا. ولايخفى أن هذه الميزات الثلاث كانت على كمالها وذروتها في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لا في أهل الكتاب، فتبين أن ما سبق ذكره من أماني أهل الكتاب عاد لاغيًا غير مجدٍ.

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

أي كل ما في السماوات والأرض عبد لله تعالى وخلق، ومملوك له، وفي يده، فيعامل من يشاء كيف يشاء برحمته وحكمته، وهو الغني عن كل شيء، فلاينخدع أحد باتخاذه خليلا، ولايشك في ثواب وعقوبةجميع الحسنات والسيئات التي يأتيها الناس.

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

أول هذه السورة تؤكد أداء حقوق اليتامى، وتبين أن ولي اليتيمة - كابن العم مثلا- إذا ظن أنه لايؤديها حقها، فلا يتزوجها؛ بل يزوجها غيره، ويقوم عليها ويحميها. فأمسك المسلمون عن نكاح أمثال هؤلاء النسوة، وأفادت التجارب أنه يستحسن في حق اليتيمة في بعض الأحوال أن يتزوجها وليها؛ فإنه يراعيها مالا يراعيه غيره.

فاستأذن المسلمون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في زواجهن، فنزلت هذه الآية، ورخصت لهم في ذلك. ونبهت على أن المنع السابق خاص بما إذا كان لا يقسط لهن ولايوفي حقوقهن، وشددت الآية على أداء حقوق اليتامى، وأن نكاح اليتامى بقصد الإحسان إليهن لابأس به.

فائدة: كان العرب يحرمون النساء، والأطفال واليتامى بعض الحقوق، فلايورثونهم، قائلين: لايرث إلا من طاعن بالرمح وضرب بالسيف. وكان أولياء اليتامى من النساء يتزوجونهن ثم لايوفون نفقتهن ومهورهن، و يتصرفون في أموالهن بغير حق. وقد سبقت تأكيدات في هذا الباب في بداية هذه السورة، وملخص ما مر ذكره في عدة ركوعات سابقة أن واجب الاتباع هو الحكم الإلهي، لاعبرة بعقل أحد أو قانونه أو حكمه أو أمنيته وأمله أو قياسه وتقديره. وتقديم حكم أحد على حكم الله تعالى، والإعراض عنه، والعمل بحكم غيره سبحانه تعالى كفر بواح وضلال صريح. وشرح هذا المعنى على وجوه مختلفة وبتأكيدات بليغة، ثم أشار إلى الآيات السابقة، وشرح مزيدًا من الأحكام الخاصة بنكاح النسوة واليتامى، وذلك لئلا يكون لأحد حجة في حقوق النسوة بعد هذه التأكيدات.

روي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين حكم ميراث النساء، فجاءه بعض رؤساء العرب، وقالوا عجبًا: لقد سمعنا أنك تورث الأخوات والبنات، ولا يرث إلا من قاتل العدو، وغنم المال؟ فقال النبي ﷺ:

إن الله تعالى يأمركم أن تورثوهن. وفيه إشارة إلى أن ماصَدَقَ قوله تعالى: (وَمَنْ اَحْسَنُ دِيْنًا مِّمَّنْ اَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ)[النساء:١٢٥] هم الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، الذين لايستبيحون أدنى بخس لحقوق من تحتهم فيما يخص النكاح والمهر والنفقة، ولايبالون بأغراضهم ومنافعهم الشخصية وتقاليد قومهم إذا عارضت أمر الله تعالى، ويتجنبون حتى مظنة مخالفة الأمر الإلهي، ولايأتون شيئا إلا بعد الاستئذان الصريح. والله أعلم.

فائـــدة: أي يعلـم الله تعـالى كـل ذرة مـن حسناتكم، فما أحسنتم به إلى اليتامى والنسوة تجزون عليه حتمًا.

وَإِنِ ٱمْـرَأَةٌ خَافَـتْ مِـنۢ بَعْلِهَـا نُـشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَـاحَ عَلَيْهِمَـآ أَن يُـصْلِحَا بَيْنَهُمَـا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْـضِرَتِ ٱلْأَنفُـسُ ٱلـشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُـواْ فَـإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَـا تَعْمَلُـونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

أي إذا وجدت المرأة زوجها قد ملَّها وأعرض عنها، فأرضته بالتنازل عن شيء من مهرها أو نفقتها وغيرهما، فلا إثم في هذه المصالحة، فما أحسن المصالحةَ والتوفيق بين الزوجين. وأما التضييق على المرأة من غير مبرر، والتصرف في مالها بغير إذنها فإثم وخطيئة.

فائدة: أشرب كل واحد في نفسه الحرص على الانتفاع والمال، والبخلُ، فلو نفعت المرأة زوجها نظرًا إلى مصلحتها، فرح به الزوج.

فائـــدة: وإن أحـسنتم إلى النـساء، وتجنبـتم الإساءةَ إليهن وشقاقَهن، فإن الله تعالى خبير بأموركم كلها، ولابد أن يجازيكم بهذا الإحسان، وحينئذٍ لم يُحتَج إلى الإعراض ولا عدم الرضا، ولا إلى الإرضاء والتنازل عن بعض الحقوق.

وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

أي إذا كان في عصمة أحدكم أكثر من امرأة، فلن تستطيعوا أن تسووا كل التسوية بينهن في الحب القلبي، وكل أمر من أمورهن، ولكن لا تظلمونهن بالميل إلى إحداهن، وبتركها معلقة، فلاترضون بإبقائها في عصمتكم، ولاتفارقونها حتى تتزوج زوجًا آخر.

فائـــدة: أي إذا أصلحتم وصالحتم، وتجنبتم التعدي وبخس الحقوق ما وسعكم ذلك، فإن الله تعالى يعفو بعد ذلك.

وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

وإن آثر الزوجان المفارقة، وحصل بينهما الطلاق، فلا بأس، فإن الله تعالى وكيل كل أحد، ويقضي حاجاتهما، وفيه إشارة إلى ضرورة إمساك الزوجة بالراحة والطمأنينة، وألا يؤذيها، فإن عجز عنه فأحرِ به أن يطلقها. والله أعلم.

==========

(١) الحديث: أخرجه الحاكم في المستدرك بلفظ: «يَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ فَاتَّبِعُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ، فَإِنَّهُ مَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ» برقم [٣٩١].

القيم العُليا للفكر الإسلامي

بقلم: الأستاذ أنور الجندي

ماذا يمكن أن يعطي جوهر الفكر الإسلامي العرب والمسلمين، وماذا يمكن أن يعطي البشرية والفكر الإنساني العالمي؟

الواقع أن هذا الفكر قد أعطى وما يزال يعطي الفكر الإنساني مزيدًا من الخير والحق.

ففي المجال الإنساني، مجال حقوق الإنسان، يبدو الفكر العربي الإسلامي مصدرًا غزير المنابع للمساواة وحرية العبادة، حيث لا فضل لعربي على أعجمي، ولا أبيض على أسود والناس سواسية كأسنان المشط، ويكاد يكون مصدر حقوق الإنسان واضحًا في كلمة عمر بن الخطاب.

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟».

وفي مجال العدل والرحمة:

«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، قيل يا رسول الله، نعرف كيف ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا؟ قال تردّه عن الظلم».

وفي الحرب: احترام للوعود والعهود، ولا تستخدم القوة إلا لرفع ظلم، وحماية كاملة للطفل والشيخ والعباد العاكفين في الصوامع.

ولقد كان للعلم في مجال الفكر الإسلامي مقام خطير.

«فلا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء، ولا لتصرفوا به وجوه الناس، وهو دعوة عامة. كن عالمًا أومتعلمًا أو مستمعًا وإياك والرابعة فتهلك». والرابعة هي ادعاء العلم.

وأبرز مفاهيم العلم في الفكر الإسلامي العربي المطابقة بين الكلمة والسلوك.

ولقد اهتز القاضي المجاهد «أسد بن الفرات» لفضل العلم عندما خرج على رأس الجيش الزاحف إلى صقلية، وهاله ما رأى من كثرة المودعين له من العلماء والوجوه ورجال الدولة وعامة الناس، وقد صهلت الخيل وضربت الطبول ونشرت البنود، فقال: والله يا معشر الناس، ما ولى لي أب ولا جد ولاية قط، وما رأى أحد من سلفي مثل هذا قط. وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام، فأجهدوا أنفسكم وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه، وكاثروا عليه واصبروا على شدته؛ فانكم تنالون به الدنيا والآخرة.

وقد ظلت مزية الفكر العربي الإسلامي هي القدرة على الجمع بين العقل والقلب، والروح والمادة، وبين الدين والعلم. وهو ما تتطلع إليه الإنسانية الآن حيث يقول دعاة المذهب الإنساني: إن تطور الإنسان يجب أن يمتد في أبعاد ثلاثة في وقت واحد هي: الأبعاد المادية والثقافية والأخلاقية، ويقول جوستاف لوبون: إننا مسيرون بثلاث حقائق هي الحقائق العاطفية والحقائق الدينية

والحقائق العقلية.

وقد وصل «برجسون» إلى أن الذهن البشري وحده لا يستطيع فهم حقائق الحياة.

ويبدو جوهر الفكر الإسلامي حول بناء إنسان ممتاز، ويدعو إلى التحرر من استهلاك طاقاته الجسدية والمادية، على أساس من القصد لا الإسراف. وتتمثل إنسانيته في التعالي عن الصغائر، فالفكر الإسلامي يعمل على التكوين الفردي الإنساني التقدمي، فالغنى غنى النفس، وذو البأس تعرف قدرته في مواقع اللقاء، وذو الأمانة يعرف عند الأخذ والعطاء، والأخوة تعرف عند النوائب، ولكل أجر جزاء، ومن يحصل على الأجر يعمل بضمير، والزكاة ليست صدقة، والعمل شرف، والعلم من المهد إلى اللحد، والعمل للدنيا والآخرة، والناس تتكافأ دماؤهم وأموالهم، والمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص.

وقد كان للفكر الإسلامي آثاره الواضحة العميقة في النهضة الأوروبية مرتين.. الأولى: في ثورة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر بقيادة «مارتن لوثر» و«كلفن»، وكانت آراء «ابن رشد» قد خلقت مدرسة ضخمة لها في قلب أوربا، فلم يلبث أن نادى «كلفن» بما ينادي به الفكر الإسلامي العربي فقال: «إن الصلة بين الإنسان والله هي السبيل الوحيد للغفران، وأن لا قوة إلا بالله، وليس لرأي بشري حرمة التقديس».

والثانية: في نقل الغرب للفكر العربي الإسلامي في مجال العلم، وقد بدأ فضل المسلمين واضحًا على الأدب والفلسفة والرياضيات والفلك والجغرافيا والطبيعة والكيمياء والطب والموسيقى والفنون والصناعة والزخرفة والعمارة ونحن لم نكن عالة على اليونان، وكان استمدادنا من منبعين أساسيين: القرآن الكريم وكلمات محمد ﷺ.

وفي مجال استقلالية الفكر العربي الإسلامي، يبدو أعلامنا وقد خالفوا آراء أرسطو وأفلاطون في كثير من النظريات فلم يتقيدوا بها؛ بل أخذوا منها ما يتفق مع (روح الإسلام) وقال ابن سينا: إن الفلاسفة يصيبون ويخطئون كسائر الناس.

وقد رفض المسلمون الخرافات الوثنية وتعدد الإله وطابع الإباحة في الفكر اليوناني.

ودعا (جابر بن حيان) إلى إجراء «التجربة» وقال: إن واجب المشتغل في الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة، وأن المعرفة لا تحصل إلا بها.

وفي هذا يقول جوستاف لوبون عن هميرلد: إن القاعدة عند العرب المسلمين هي «جرب وشاهد ولاحظ» تكن عارفًا.

وقد كان المسلمون أكثر دقة في هذا المجال إلى درجة حملتهم على التعالي عن أخذ آراء الغير ونسبتها إلى أنفسهم، قال ابن الهيثم: إن وجدت كلامًا حسنًا لغيرك فلا تنسبه لنفسك واكتف باستفادتك منه، ويقول ابن حزم: «ما مذهبي أن أنضي مطية سواي» وعنده أن «التقليد حرام، وأنه لا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد من غير برهان».

وقد سبق المعري دانتي إلى كتابة الكوميديا بكتابه المعروف «رسالة الغفران» وقد أخذ دانتي مادة الكوميديا التي كتبها أساسًا من جوهر الفكر الإسلامي.

وزين العابدين الآمدي (٧١٢هـ) هو أول من ابتكر الكتابة البارزة للميان.

ونظرية «التطور» قال بها إخوان الصفا في رسائلهم، وذكرها ابن مسكويه في كتبه، قبل دارون، وقد وردت كلمة «التطور» بمفهومها في الطبقات الكبرى للسبكي ومقدمة ابن خلدون من غير أن يذهبوا مذهب دارون في أصل الإنسان.

وطريقة البحث العلمي المنهجي، وضع أصولها ابن الهيثم وابن رشد وابن حزم والجاحظ، قبل أن يقول بها فرنسيس باكون في القرن السادس عشر.

كما سبق ابن الهيثم «بيكون» في الطريقة «الاستقرائية» وسما عليه، وكان أوسع منه أفقًا وأعمق تفكيرًا فقد جمع ابن الهيثم بين الاستقراء والقياس، وقدم الاستقراء على القياس، وحدد الشرط الأساسي في البحث العلمي وهو «طلب الحقيقة» دون أن يكون لرأي سابق أو نزعة من عاطفة أيًّا كانت دخل في الأمر (راجع تراث العرب العلمي لقدري طوقان).

وقد وضع علماء المسلمين أساس النظريات الاقتصادية، فظهر كتاب (الخراج) ليحيى بن آدم القرشي ٢٠٣هـ وكتاب (الاكتساب في الرزق المستطاب) للإمام الشيباني ٢٣٤هـ وكتاب الخراج لأحمد حنبل فمقدمة ابن خلدون.

وابن حزم دافع عن كروية الأرض بالعقل والدين، وسبق (كانت) في نظرية (المعرفة) بسبعة قرون، والفارابي فكر في (أمم متحدة) منذ قرون، وعنده أن الدين والفلسفة لا يتناقضان، وابن رشد دعا إلى مشاركة المرأة الرجل في خدمة المجتمع والدولة.

ويرى الفارابي: أن السعادة ممكنة على وجه الأرض إذا تعاون المجتمع على نيلها بالأعمال الفاضلة، وابن ماجد هو الذي قاد (فاسكودي جاما) في طوافه حول الأرض.

وأخذ (دافيد هيوم) نظرية «الغزالي» في أن الأمور تتم بإرادة الله لا بالأسباب الظاهرة وفي علوم الطب سجل (الكرك) ثلاث مئة كتاب نقلها الغرب من العربية إلى اللاتينية، وقال: ما عرفت أوربا المدنية إلا بعد أن مرت على لسان أتباع محمد.

وما تزال قواميس اللغات الأوروبية تعج بالكلمات العربية سواء ما يتعلق منها بالحاجات اليومية أو الأطعمة أو الألبسة أو العقاقير، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالملاحة.

وأشار جورج سارطون إلى فضل المسلمين على العلم فقال: إنهم لم ينسخوا من المصادر اليونانية أو السنسكرتية (الهندية)، ولكنهم جمعوا بين المصدرين، ثم لقحوا الآراء، وهذا هو الابتكار، فالابتكار هو حياكة الخيوط المتفرقة في نسيج واحد. وقد أكد العلماء بأن المسلمين هم مبدعو «التجربة» بالمعنى الدقيق للكلمة، وأول من جعل من الوقائع المعزولة عن متنها نقطة الانطلاق لكل بحث.

وقد تأكد أن الغزالي في دراسته للدولة أو المدينة يعقد المقارنة بينها وبين جسم الإنسان، ويرى الباحثون أن الغزالي في ذلك أسبق من الفيلسوف «هربرت سبنسر» الذي عمد إلى نفس المقارنة، فالغزالي يشبه الملك بالقلب، وأصحاب المهن الحرة بأعضاء الجسم والشرطة بعصب الإنسان، والوزراء

بحس الإدراك والقضاء بالشعور.

ومصـدر الفكر الإسـلامي يلتمس أساسًا من القرآن الكريم كتاب الإسلام والعربية، وليس أدل على أثر القرآن في الفكر والثقافة العربية من كلمة «جورجي زيدان» في كتابه آداب اللغة العربية يقول:

«وتـأثير القـرآن في أخـلاق أهلـه ومعـاملاتهم اليوميـة والبيئيـة لا يخلـو مـن التـأثير في عقـولهم وقرائحهم وآرائهم، فالصيغة القرآنية أو الإسلامية تظهر في مؤلفات المسلمين، ولو ألّفوا في الفلسفة أو الطب أو الفلك أو الحساب أو غيرها من العلوم الرياضية والطبيعية، فضلا عن العلوم الإسلامية والشرعية والأدب.

والقـرآن أشـد تـأثيرًا في المـسلمين مـن سـواه؛ لأنهم مكلفون بحفظه قبل كل علم، وهو داخل في كل شيء من أمورهم الدينية والدنيوية، وأساس شرائعهـم القـضائية وقاعـدة معـاملاتهم اليوميـة وأحوالهم العائلية، حتى الطعام واللباس والشراب والنوم، وهذا ما لا نراه في الأناجيل مثلا، فإنها كتب تعليمية لمصلحة الآخرة فقط، ولا نجد فيها شرعًا أو حكومة أو أحوالا شخصية أو نحو ذلك.

وبالجملـة فـإن للقـرآن تـأثيرًا في آداب اللغـة العربية ليس لكتاب ديني مثله في اللغات الأخرى».

ولقد صارت اللغة العربية التي نزل القرآن بها أساسًـا «لغـة عالميـة» أدهـشت البـاحثين في تطورهـا ونموها على النحو الذي يصوره «أرنست رينان» في كتابه «اللغات السامية» يقول:

«إن من أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغـة غير معروفة بـادئ ذي بـدء، فبـدأت فجـأة في غايـة الكمال سلـسة أي سلاسـة، غنيـة أي غنـى، كاملـة، بحيث لم يـدخل عليهـا منـذ يومنـا هـذا أي تعـديل مهم، فليس لها طفولـة ولا شـيخوخة، ظهـرت أول أمرها تامة مستحكمة، ولم يمض على فتح الأنـدلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجـال الكنيـسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى.

ومن أغرب المدهـشات أن تثبـت تلـك اللغـة القومية وتصل إلى درجة الكـمال وسـط الـصحارى عند أمة من الرحل، تلك اللغة التي فاقـت أخواتهـا بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيهـا، وكانت هذه اللغـة مجهولـة عنـد الأمـم، ومـن يـوم علمت ظهرت لنا في حـال الكـمال إلى درجـة أنهـا لم تتغير أيَّ تغير يذكر، حتـى إنـه لم يعـرف لهـا في كـل أطوار حياتها طفولة ولا شيخوخة».

وقد أعطى «الفكر الإسلامي العربي» طابعه وروحه في كل مجالات الفكر.

في مجـال العلـوم والفلـسفات، أعطـى «مـنهج البحث العلمي» الذي عرفه الغرب من بعد، وكانت لـه الأوليـات الأساسـية في دراسـات التـاريخ والاقتصاد، وفي مجال التربية كان للكلمة العربية آثارها ومكانها، فإن الآراء التي أعلنها «ابن سينا» ونادى بها، وما تزال حية، وقد أثبتتها الآن دراسات التربية الحديثة. ونظرته هي اليوم موضع التطبيق من حيـث التوجيـه المـدرسي وفقًـا لميـول الأطفـال وقدراتهم، والتوجيه المهني والأخذ بنظام التعلم الفـردي والجمعـي في وقـت واحـد، والـتعلم وفـق قاعدة الانتقال من السهل إلى الصعب.

ونظرات الغزالي في التربية هي أيضا اليوم مصدر نظريات العصر كنظرية التعليم بالترابط والتداعي حيث يكون الترابط فيه بين فكرة وأخرى، وهو ما صوره الغزالي في قوله «على الطالب ألا يدع فنًّا من العلوم المحمودة، ولا نوعًا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرًا يطلع به على مقصده وغايته طالبا التبحر؛ لأن العلوم متفاوتة وبعضها مرتبط ببعض».

وكذلك «الطريقة القياسية الحديثة» حيث يبدأ التدريس من الجزئي إلى الكلي.

ويصور هذا المعنى «بيارد دودج» في كتابه التربية الإسلامية في العصور المتوسطة والذي يلخصه أساسًا في عبارة الرسول «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ويقول عن مفهوم التربية الإسلامية: «إن التربية تفاعل بين المعلم والطالب وتجاوب بين نفسين وعقلين في جو من الحرية والاحترام، وليس للمنهاج شأن يذكر».

وقال: إن التربية الإسلامية تهدف إلى نشدان الحقيقة والخير لذاتها، وعندما ندرس سير علماء المسلمين الذين انقطعوا للعلم، نعجب بالتصرف العلمي والجلد اللذين كانا يتجليان في العالم الإسلامي، فلا غرض مادي، ولا هوى سياسي ولا سعي لشهرة زائلة؛ بل وقف العقل والنفس للوصول إلى الحقائق والسعي إليها. ولقد كانت التربية الإسلامية تعنى بالأخلاق والفضائل، ولقد أدرك المربّون بالبداهة أن تدريب العقل واستيعاب الحقائق هما جزء من عملية تدريب الطالب ولكن الغاية القصوى هي تهذيب النفس وتقويم الأخلاق».

ومما يذكر في هذا الصدد أن العلامة «العبدري» هو أول من دعا إلى أن يلعب الأطفال باللعب بعد المكتب حتى تذهب عنهم آثار التعب والملل.

ويمكن أن يصحح هذا خطأ شائعًا حاول «التغريب» إذاعته، وهو أن الغرب أول من دعا إلى التعليم المجاني الملزم، والواقع أن المسلمين قد بدؤوا ذلك منذ فجر الإسلام، وقد أشار أبو الحسن المقايسي في دراسته المسماة «رسالة أحوال المعلمين والمتعلمين» إلى أن التعليم حق لكل صبي، وواجب على الدولة وهي مكلفة به، إذا لم يكن أهله قادرين على الإنفاق عليه ودفع أجر معلم الكتاب من بيت مال المسلمين.

وثانيًا: تعليم البنات؛ لأن الإسلام عام لجميع الناس تمثلا بقول الرسول «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

ولا ننسى هذا حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد». ولقد أخذ كثير من الدول الغربية هذا الحديث واعتبرته شعارًا لها، وظن بعض شبابنا أنه من صناعتهم وأنه غير مسبوق في الفكر الإسلامي.

وترد هذه الكلمات على كل ما يوجه للفكر العربي الإسلامي من اتهامات، وهي تعطي الدليل الأكيد على خطإ الرأي القائل بأن فكرنا روحي خالص، ذلك أن فكرنا يمثل امتزاج الروح والمادة بالعقل. ويؤكد أيضا أن فكرنا لا يعطي روح التشاؤم ولا السلبية ولا الانحراف ولا الإحساس بأن الحياة عبث كما تعطي بعض الفلسفات.

وهذه الكلمات تدل بالبرهان على أن المسلمين كانت لهم عقليتهم ومقومات فكرهم وأنهم لم يستمدوا علومهم وفلسفتهم من فكر اليونان ولا من أي فكر آخر. وهي ليست قاصرة على الأخلاق وحدها، أوعاجزة عن استنتاج المعاني أو مجاراة الزمن.

وتكذب أيضا ما يقال من أن فكرنا فكر «غيبي» أوفكر التواكل والتسليم؛ بل إنها لتؤكد الواقعية والعصرية والإيجابية للفكرة الإسلامية بأوضح دليل وأجلى برهان.

وفي ضوء هذه اللمحات السريعة تتكشف الحقيقة الواضحة من أن مفاهيم الإسلام تلتقي بالحياة ولا تنفصل عنها، وأنها تستطيع أن تعطي طابع الإبداع والإيجابية والعصرية والتطور والحركة، وليس صحيحًا ما وصفت به من أنها كانت تتطلع إلى العالم الآخر وحده، فلقد كانت تمزج بين نظرتي الدنيا والآخرة، ولم يمنعها ذلك من الكشف والبحث والعلم والعمل الإيجابي المنتج في مجال الحضارة الإنسانية.

وليس من العدل أو الإنصاف أن يحاكم الفكر الإسلامي بفترة الضعف التي مر بها العالم الإسلامي حين لم تكن قيم الإسلام هي التي حالت دون التقدم، أو هي التي وقفت بالمسلمين وقفة الجمود، بل كان تركها وإهمالها هو السبب في الانفصال الذي وقع بين جوهر الفكر الإسلامي وبين التطبيق، فليس الإسلام سبب التخلف؛ بل إن المسلمين تخلفوا عندما انسحبوا من مقومات فكرهم.

ولقد كان الفكر الإسلامي قادرًا على الحياة دائمًا وعلى التخلص من النظريات التي تحاول أن تفسد جوهره، فقد حارب في فترات نموه، التقليد الأعمى والجمود والخرافات، وحرص كثير من أعلامه كالأشعري والغزالي وابن تيمية على حمايته من تجاوز الفلاسفة أو تجاوز الصوفية.

وقد عاش دائمًا واقعية الحياة واستطاع أن يتجدد وأن يجتهد متخلصًا من قيود التقليد، وقد أعطت النماذج المتعددة، لمفاهيمه وقيمه قدرة المفكرين المسلمين من فقهاء وأئمة على ملابسة أحوال العصور وتعرف حاجات الناس، وإيجاد حلول أيجابية تقدمية حية لكل حالة، مقدرين تطور الزمن وتغير البيئات.

فالفكر الإسلامي يمثل خطًا موحدًا متصلًا، عماده الإنسان، وبناء كيانه النفسي والمادي معًا، وإيجاد حلول لمختلف قضاياه ومشاكله. ولقد يذهب بعض الدارسين هنا وهناك يبحثون عن كلمات شرقية أو غربية حديثة ليجدوا فيها عصارة التجربة الإنسانية الإيجابية. وما من كلمة هنا وهناك، إلا وقد مرت على لسان العربية وفكر الإسلام.

وقد أعطت الكلمة المستمدة من القرآن، تلك القوة الذاتية التي مكنت من مقاومة كل عدوان، وحماية المقومات.

وما زال الفكر الإسلامي في جوهره ومنابعه قادرًا على إعطاء الإنسانية فيضًا من الكرامة، وإقامة العدل الاجتماعي، وتوثيق بناء الحضارة على أساس التضامن والمساواة والأخوة. وفي أزمة الإنسان والضمير العالمي اليوم يجد الفكر الإسلامي طريقًا جديدًا ليكون بلسمًا للإنسانية وعلاجًا لها من أزمتها الحاسمة.

من تـاريخ الجامعة الإسلامية : دارالعلوم/ ديوبنـد

(الحلقة ٩٧)

بقلم: الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه اللّه-
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري(*)

تراجم خريجي دارالعلوم/ديوبند:

١- الشيخ مير باز خان التهانوي:

ولد الشيخ مير باز خان رحمه الله عام ١٢٥٨هـ في «بهوجفور» من مديرية «مظفرنغر»، وتلقى العلم على الشيخ محمد بن أحمد الله التهانوي، والشيخ محمد مظهر النانوتوي وغيرهما من أهل العلم. والتحق بدارالعلوم/ديوبند في أوائل عام ١٢٨٣هـ، وهو أول من تخرج من دارالعلوم/ديوبند، وكان من سكان «تهانه بهون»، وكان يقوم بالتدريس أيام تحصيله الدراسي، وكان له ملكة راسخة في ذلك. فقام بتدريس «شرح الوقاية» و«نور الأنوار»، و«صحيح مسلم» و«الميبذي» و«شرح العقائد النسفية»، و«المقامات الحريرية» و«المعلقات السبع في السنة الأولى من تدريسه». وجاء في وثيقة تخرجه: «كان يتولى شؤون دارالعلوم نيابةً، فتقول التقارير الدورية لدارالعلوم:

«يتوفر في المدرسة طلاب أوشكوا على التخرج يقومون بأعمال الإدارة عن جدارة، فبناء على طلب رئيس الجامعة في مدرسة مظاهرعلوم/ سهارن فور أرسل المولوي مير باز خان – طالب بهذه المدرسة ومدرس بالدرجة الثانية- إلى المدرسة العربية في سهارن فور». (تقارير عام١٢٨٤هـ،ص٢).

وجاء في التقارير الدورية لعام ١٢٨٣هـ- خلال معرض الحديث عن أعمال المدرسين التعليمية:

«قام المدرسون الآخرون أمثال المولوي محمد فاضل، والمولوي ميرباز خان، والمولوي فتح محمد، والحافظ أحمد حسن بأعمالهم على أحسن وجه».. (تقارير عام١٢٨٣هـ، ص٢).

وفي عام ١٢٨٨هـ قام الشيخ مير باز بأعمال رئيس هيئة التدريس نيابةً عن الشيخ محمد مظهر رئيس هيئة التدريس بمدرسة مظاهر علوم مرتين[١].

بايع الشيخ عبد الرحيم السهارنفوري خليفة الشيخ عبد القيوم الصواتي المعروف بـ أخوند[٢].

(*) أستاذ الحديث واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

جـاء اسـمه في تـاريخ مظـاهر علـوم ونزهـة الخواطر «أمير أحمد»، وأما تقارير دارالعلوم/ديوبند الدورية فتنص على أن اسمه «مير بازخان».

وقامت مطبعة بلالي البخاري/سادهوره بنشر مجموعة بخط يده المعروفة بـ«استدراك الأمير من أسرار اللطيف الخبير».

توفي الشيخ مير باز عام ١٣٢٥هـ. وكان كفل طعامَه الحكيم مشتاق أحمد الراحل[٣] المتوفى عام ١٣١٠هـ، (تقارير دورية لعام ١٢٨٣هـ،ص ١١).

٢- الشيخ فتح محمد التهانوي:

الشيخ فتح محمد ممن التحق بدارالعلوم/ ديوبند في السنة الأولى من نشأتها عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م، وكان واحدًا من الطلبة الثلاثة الذين تخرجوا لأول مرة من دارالعلوم عام ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، جاء في الشهادة التي أصدرتها دارالعلوم له:

«التحق بدارالعلوم عام ١٢٨٣هـ، وقرأ بها في البلاغة «مختصر المعاني»، وفي المنطق: «مير قطبي»، و في الحكمة «الميبذي»، وفي الكلام «شرح العقائد»، وفي أصول الفقه «أصول الشاشي»، و «نور الأنوار»، وفي الفقه «الهداية»، وفي الحديث «سنن النسائي»، و«صحيح مسلم»، و«صحيح البخاري»، والموطأ، وفي التفسير «تفسير البيضاوي»، و في الهيئة «التصريح شرح التشريح»، و في الأدب «نفحة اليمن»، و«مقامات الحريري»، و«ديوان المتنبئ». وحصل على الدرجات الكاملة في الاختبار السنوي، بالإضافة إلى الجائزة. له استعداد تام، ومناسبة كاملة، وطبع سليم، وفكر صائب، وذهن نافذ. يقوم بأعمال الإدارة نيابةً على أحسن وجه، مرضي الأخلاق والسلوك عند المدرسين ورئيس دارالعلوم، يثني عليه الطلبة كلهم، ويمدح زملاؤه في الدرس».

وكان الشيخ محمد يجمع بين الدراسة في دارالعلوم والتدريس فيها، كما يتجلى ذلك من الشطر الأخير من الشهادة المذكورة آنفًا، وتصرح التقارير الدورية ذلك أكثر، فتقول في صدد الحديث عن أعمال المدرسين التعليمية:

«قام كل من المولوي محمد فاضل، والمولوي مير باز خان، والمولوي فتح محمد، والحافظ أحمد حسن بأعمالهم بنشاط وحيوية[٤]. وكفل طعامه الجودهري إمداد علي»[٥].

كان الشيخ فتح محمد من «تهانه بهون»، وكان أول من تولى التدريس- بعد التخرج من دارالعلوم/ديوبند - في مدرسة «حوض والي مسجد»- التي أنشأها الحافظ عبد الرزاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ-.

قام بترجمة «شرح حزب البحر» للشيخ محمد التهانوي المتوفى ١٢٩٦هـ/١٨٧٨م إلى اللغة الأردية. وهذه الترجمة على غاية من اليسر والقرب إلى الأفهام. قال في الترجمة الأردية لـ«وحدة الوجود ووحدة الشهود»:

«كان الشيخ محمد التهانوي من الشخصيات

البارزة، التي جلبت لهذه القصبة صيتًا دائمًا مستمرًّا. كان على حظ وافر من علوم الظاهر والباطن كليهما، وصاحب كشف وكرامات. قرأ عليه الشيخ محمد عمر- الخلف الرشيد للشيخ محمد التهانوي- بعض الكتب. قام بنقل كتاب شيخه ومرشده الشيخ محمد التهانوي المعروف بـ«شرح حزب البحر» إلى اللغة الأردية»[٦].

ولك أن تقدر ما كان عليه الشيخ فتح محمد من الرغبة والعاطفة القوية نحو تلقي العلوم بأنه لايبلغه أن ثمة عالمًا بارعًا في فنه إلا مشى إليه على قدميه. وبلغه ذات مرة أن في قصبة «جهنجهانه» عالمًا يدرس «المثنوي لمولانا الرومي» أحسن تدريس، فكان يمشي على قدميه يوم الخميس إلى «جهنجهانه»، ويقرأ عليه يوم الجمعة، ويعود يوم السبت إلى «تهانه بهون»، فلما أتى على آخر الكتاب ولم يبق منه إلا شطر يسير ترخص من المدرسة عدة أيام وأتى على أخر الكتاب»[٧].

وصل الشيخ فتح محمد حبله بحبال مدرسة «تهانه بهون» حتى آخر أيامه، وللأسف لم أعثر على سنة وفاته. وممن تتلمذ عليه الشيخ أشرف علي التهانوي المعروف بحكيم الأمة.

٣- الشيخ القاضي محي الدين المرادآبادي:

من أخص تلامذة الإمام محمد قاسم النانوتوي ومن العلماء الأجلة. تولى القضاء في ولاية «بهوبال»، جاء عنه في تقارير دارالعلوم مايلي:

«الشيخ القاضي محي الدين خان المراد آبادي، عضو المجلس الاستشاري بدارالعلوم/ديوبند ،من تلامذة الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله. وكان في عداد أخص وألصق الناس بالإمام النانوتوي. تولى القضاء في ولاية «بهوبال» مدة طويلة، وقضى حياة مليئة بالوقار والحشمة»[٨].

وكان والده من خاصة جلساء الملك بهادر شاه ظفر، وكان بايع الشيخ النانوتوي رحمه الله. وأرسل الشيخ النانوتوي في معركة «شاملي» على يده اقتراحاته إلى الملك بهادر شاه ظفر.

اختير عضوًا للمجلس الاستشاري بدارالعلوم /ديوبند عام ١٣١٣هـ، وظل يسدي آراءه النافعة إلى المجلس، وتوفي عام ١٣٤٧هـ.

٤- الشيخ عبد الحق الفورقاضوي:

أصله من قصبة «فورقاضي»[٩] من مديرية «مظفر نغر»، ولد نحو عام ١٢٥٨هـ، والتحق بدارالعلوم/ديوبند عام ١٢٨٣هـ، وتخرج منها عام١٢٨٦هـ. وأنيط به عمامة التخرج مع شيخ الهند محمود حسن الديوبندي وغيره من أهل العلم في أول حفلة عقدت لإناطة العمائم برؤوس المتخرجين. و بعد ما تخرج من دارالعلوم/ديوبند تولى منصب «المحاسب العام» في ولاية «رتلام»، واستمر عليه حتى آخر لحظة من حياته. وكان موضع ثقة حاكم الولاية، ونموذجًا حيًّا لما كان عليه العلماء السلف. تزوج بابنته الصغرى المدعوة/

أسعدي خاتون الشيخ الحافظ عبد اللطيف[10]- مدير مدرسة مظاهر علوم/سهارن فور-. وكان كتب لبنته عند زفافه إلى زوجها نصائح وتوجيهات قيمة، نشرها الشيخ أشرف علي التهانوي فيما بعد باسم «خير الجهاز» للعروس في كتابه «بهشتي زيور». توفي الشيخ عبد الحق في ٨/صفر عام ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م في «رتلام».

* * *

الهوامش:

(١) تاريخ مظاهر علوم/سهارن فور، ص ٢٢-٢٤.

(٢) نزهة الخواطر٨/٧٤.

(٣) الحكيم مشتاق أحمد من وجوه ديوبند وأحد الأطباء الحاذقين، ويقع منزله الشامخ غرفة جلوسه بالقرب من دارالعلوم/ديوبند شرقا بجوار مسجد القاضي. من أعماله إعادة بناء مسجد القاضي. اختير عضوًا للمجلس الاستشاري بدارالعلوم/ديوبند عام ١٢٩٨هـ، وكان بايع الإمام محمد قاسم النانوتوي، وهو الذي وقف قطعة أرض لدفن الشيخ النانوتوي فيها يوم توفي النانوتوي رحمه الله. وكان يكفل طعام طالب واحد من طلاب دارالعلوم/ديوبند بصورة مستقلة. توفي عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م، ودفن في المقبرة التي وقفها والتي عرفت بالمقبرة القاسمية. واشتهر عنه قول الإمام النانوتوي: «في ديوبند ذكي ونصف ذكي، أما الذكي الكامل فهو الحكيم مشتاق أحمد، وأما نصف الذكي فهو الشيخ نهال أحمد الشاعر الأديب». وكان الإمام النانوتوي يقول: «تتفتح شهية الكلام في نفسي حين يجلس أحدهما بين يدي في مجلس الوعظ، وتتوارد علي المواد والأفكار، اعتبارا مني بأن في المجلس من يفهم كلامي».

(٤) التقارير الدورية للعام الأول عام ١٢٨٣هـ، ص ٢.

(٥) التقارير الدورية للعام الأول عام ١٢٨٣هـ، ص١١.

(٦) وحدة الوجود والشهود: ترجمة: ثناء الله إيم أي، (ط:مطبعة إيجوكيشن /كراتشي) ص ٨٨.

(٧) أرواح ثلاثة ، حكاية رقم: ٤٠٥.

(٨) التقارير الدورية لعام ١٣٤٨هـ، ص ٥.

(٩) فورقاضي: قرية قديمة للشرفاء والسادات شمال مديرية «مظفرنغر».

(١٠) ولد الحافظ عبد اللطيف رحمه الله عام ١٢٩٧هـ/١٨٧٩م في «فور قاضي»، وكان والده الشيخ جمعيت علي من زملاء الدرس للشيخ خليل أحمد الأنبيثوي، حفظ الشيخ عبد اللطيف القرآن الكريم في بلده على الحافظ أمانت علي البكهروي، ثم التحق بمظاهر علوم/سهارن فور، وأكمل العلوم والفنون كلها بها، كما تلقى العلم في دارالعلوم/ديوبند أيضًا ثلاثة أشهر خلال ذلك. أو امتاز بذكائه وفطنته، وسلامة سلوكه عن معاصريه. وكان تتلمذ على الشيخ خليل أحمد الأنبيثوي بجانب مبايعته. تولى التدريس في مظاهر علوم بعد ما قرأ فاتحة الفراغ من العلوم. وتوفر له فرصة تدريس جل الكتب المقررة في المنهج الدراسي المعروف بالمنهج النظامي. وكان له تضلع من المعقولات والمنقولات على حد سواء. ولي إدارة مظاهر علوم عام ١٣٤٤هـ، وشهدت المدرسة إبان إدارته تطورات هائلة. وهو الذي أنشأ مبنى المكتبة، وأسس السكن الطلابي المعروف بـ«الدارة الجديدة»، وأنشأ فيها مسجدا، وكذلك مبنى دارالتجويد؛ فكل ذلك من ذكرياته الخالدة. فله حظ وافر في الرقي بمظاهر علوم وإقامة المباني الجديدة فيها. قضى خمسين سنة من حياته اعتبارا من إيام دراسته إلى آخر لحظة من حياته في مظاهر علوم دارسًا ومدرسا ومساهما في رقيها وازدهارها. توفي عام ١٢٧٣هـ/١٩٥٤م. ونجله الشيخ عبد الرؤوف عالي على صلة بمجلس معارف القرآن بدارالعلوم/ديوبند منذ مدة طويلة.

* * *

العقيدة الدينية وأثرها في تربية النشء

بقلم: الدكتور/ محمد غلاب

عندما تحدق بالبلاد ظروف عسيرة، وتنزل بها محن قاسية تؤلم الكبير والصغير إيلامًا شديدًا، وليس إيلامًا من النوع المادي الذي يرهق الضعفاء، أو يزعج الجبناء، أو ينال من أفئدة المترددين والانهزاميين؛ بل هو إيلام معنوي ناشئ من خدش عزة الأمة المتأصلة في الرفعة، والمتعودة على الشموخ، حين تجد أن تلك المحنة قد نزلت بها على يد ذهب قذر من أذناب دولة مستعمرة غادرة، لا تاريخ لها، ولا ماض يشرفها، ولا وراءه شهمة ترفع من قدرها.

عندما تلقى إحدى الأمم العريقة كأمتنا مثلا نفسها في هذه الحالة، تشعر بألم قاس يحز في قلبها، وتحس إحساسًا باطنيًّا فعلا بأن عاملا قويًّا يدفعها إلى ضرورة التفكير الجدي، والتأمل العميق في معاني الأحداث المحيطة بها، والأخطار التي تتعرض لها الأمة العربية كلها. وسرعان ما تجد أن مقدمة الخطوة الأولى هي العمل السريع الحاسم الحازم على التخلص من هذه المحنة بطريقة عزيزة كريمة، تحتفظ للأمة جمعاء بهيبتها كاملة غير منقوصة، وأن مؤخرة هذه الخطوة هي النظر العاجل في إعادة تكوين الشباب، وتقويم تربيته، وتقييم جميع حركاته وسكناته، وتعويده على الصدق في القول والإخلاص في العمل. وهذا لا يتيسر إلا إذا رُبِّي الشباب تربية دينية تعتمد قبل كل شيء على العقيدة والإيمان.

ونحن في هذا لا نلقي الكلام على عواهنه، فقد أثبتت الوقائع المادية صحة هذه الدعوى مرارا، ونشرت في تقارير رسمية. فحين روعت الهزيمتان المادية والمعنوية جيش الحلفاء في إحدى مواقع الحرب العالمية الثانية، استدعى المسؤولون أطباء نفسيين ليدرسوا حالات المنهزمين أو دعاة الانهزام، فلما فعلوا، تبين لهم أن أولئك وهؤلاء جميعًا ممن فقدوا العقيدة الدينية وصاروا لا يؤمنون بشيء البتة، وبالتالي فقدوا الإيمان بالغاية، فانهارت معنوياتهم، وأصبحوا لا يجدون في نفوسهم الهدف الذي يستحق التضحية بالحياة.

ومن ثم فإنه حين نزلت الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ كان لها – كما أجمع الرواة – أثر بعيد الغور في النفوس.

من هذا كله يتبين ذلك الأثر الرائع الذي تطبع به العقيدة نفوس المؤمنين، وتهون عليهم التضحية

بالمال والحياة في سبيل الشرف والكرامة والعزة.

وإذا أغضينا مؤقتا عن مواقف الحرب والتضحية واسترجاع الهيبة وتضميد ذلك الخدش العارض الذي أصابها، ونظرنا إلى سير الحياة العامة وشؤونها العادية التي لا تستقيم إلا بالفضائل والأخلاق، ألفينا أن عشرين في المئة يمتنعون عن الجرائم خوفًا من القانون، وأن عشرة في المئة منهم فقط يمتنعون بدافع الأخلاق الاجتماعية أو المدنية، وأن سبعين في المئة يمتنعون لا عن الجرائم فحسب؛ بل عن صغائر الآثام والسيئات بدافع الدين.

فينبغي – إذن – أن يقدر المربون الذين تعنيهم استقامة الشباب، وصلاح المجتمع، أن ترفع المؤمنين الحقيقيين عن الغدر والخيانة والخداع، هو ترفع أصيل، صادر من القلب، ثابت مدى الحياة، بينما أن امتناع الخائفين من القانون هو امتناع الروغان، وأن الفرق بين الامتناعين كالفرق بين المرأة التي تصون عرضها من كل قلبها وعقلها، والأخرى التي تصونه خوفًا من بطش زوجها أو أسرتها أو من كشفها أمام المجتمع؟ وشتان ما بين حالة الثقة والطمأنينة، وحالة المراوغة الظاهرية.

على أنه قد يغلب على أوهام فريق من شبابنا السطحيين أن التمسك بالدين أو السير على نهجه القويم، وصراطه المستقيم ضرب من التأخر أو الجمود، وذلك خطأ شنيع فادح الكوارث والنكبات.

وربما كان هذا الشباب الساذج في النصف الأول من هذا القرن معذورًا في انزلاقه في هذه الهوة، إذ إن المستعمرين الذين كان لهم في البلاد العربية سماسرة، وأعوان ذوو قوة وسلطان، كانوا قد أعدوا ميزانية خاصة وضعوها تحت أيدي أولئك السماسرة الخونة، قصد إنفاقها في إفساد تربية الشبان وعقولهم وعقائدهم. وقد نجحوا في الوصول إلى هذه الغاية، فنقشوا في أذهان أنصاف المثقفين، أن أداء الفروض الدينية من: صوم وصلاة وزكاة وما إلى ذلك من التكاليف، من شأنه أن يجلب إلى أصحابه الإهانة والاستهزاء.

ولقد خلقت هذه المحاولات الاستعمارية الخطرة في نفوس الكثيرين من المسلمين عقدة نفسية، كان من نتائجها أن دفعتهم إلى التهاون في إقامة الشعائر الدينة، التي هي مناط التماسك والترابط. وتلك هي الغاية الجهنمية التي رمى إليها المستعمرون، لأنهم يعلمون تمام العلم أنه متى عم الاستهتار بالعقيدة، ساد الانحلال، ومتى ساد الانحلال، انهار الكيان من أساسه، ومتى انهار الكيان، تثبتت أقدام الاستعمار. وسر ذلك أن المستعمرين قد حنقوا على أهل هذه التعاليم القوية المتينة، فودوا أن يعملوا على ضعضعة قواهم، ومحو هيبتهم ومقاومتهم، وقد استعملوا لهذه الغاية سلاح أزلاق الشباب في هذا الاستهتار بالشعائر الدينية، وإبعاده عن فهم مغزى الأوامر السماوية، وأغلقوا دون عقوله أبواب الحضارة الإسلامية الأصيلة، وفتحوا أمامه لمعان المدنية الغربية المادية.

ولكن لو أن المسلمين المسؤولين عن تربية الشباب وقيادته نحو الحياة الأخلاقية والاجتماعية

والاقتصادية والسياسية السليمة، قد فهموا دينهم حق الفهم ولقنوا الشباب مبادئه وتعاليمه على أصولها، وراقبوا تطبيقها مراقبة دقيقة، لو أنهم فعلوا ذلك لاحتقر الشباب سخرية الساخرين منهم، ولتباهوا بقوة الإيمان، وثبات العقيدة، والمحافظة على تأدية الواجبات الدينية والدنيوية، ولنظروا إلى المثل العليا المرسومة في دينهم، وتطلعوا إلى السمو الممثل في مبادئهم وشعائرهم، ولأيقنوا أن هذه المبادئ، وتلك الشعائر من شأنها أن تقودهم إلى الحرية والسعادة؛ بل إلى الرفعة والسيادة، لا عن طريق الاستبداد والطغيان، والاستعلاء والتحكم في شؤون الغير، بل بوساطة المبادئ العالية المسعدة. وذلك لأنه إذا انتصرت في قلوب المؤمنين روح الخير التي تمثل الألوهية على الأرض، تعهدت العلائق بين الإنسان وربه بالتقوية والتنمية، ومتى تقوت هذه العلائق، جعلت النفس المؤمنة تتلقى أوامر السماء بهيئة نقية صافية، ثم تمليها أولا على حياتها العملية الخاصة، لكي يطبق العلم على العمل، فتتحقق الحكمة ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

وإذا تم له ذلك، أفاض تلك الأوامر الإلهية على بيئته ومجمعه، وقد تتسع الدعوة حتى تعم الإنسانية جمعاء، فتصلح حالة الدنيا، ويسودها الوئام والسلام، وتعمها العدالة والنصفة، ويحل الرضى محل النزاع. وتشغل المحبة من النفوس موضع البغض والحفيظة. ومن آيات ذلك أن الأوامر الإلهية، كانت منذ غابر العصور، وستظل، تقتاد بني الإنسان إلى الفلاح والكمال، إذا وضعوها موضع الاحترام والعناية والتطبيق، ولكنها – ولا قدر الله – تشهد دمارهم وفناءهم، إذا هم سحبوا عليها أذيال الإهمال والنسيان.

فإذا كانت كل الظروف والأحوال شاهدة بأننا كنا في أشد الحاجة إلى إرشاد الأوامر السماوية، وقيادة الكتاب الكريم، والسنة الغراء، لجميع أقوالنا وأفعالنا وخطواتنا وتصرفاتنا، وأن ذلك كله كان قبل أن نختلط بالأجانب، ونتعرض لما هب علينا من ربوعهم من عواصف الفتن والغوايات، فكيف بنا بعد أن انهمرت علينا من أصقاعهم سيول المادية، والميوعة والتحلل، والزندقة، والإلحاد؟

نعم إن الذين ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية عائمة، تفتنهم روعة المدنية الغربية البراقة، التي يؤلف إنتاجها العلمي والأدبي والفني والثقافي ألوانا لماعة، لشبح مدنية زائفة، تعلن أنها راقية مصقولة، وتزعم أنها بعيدة عن كل عنف وقسوة. ولكن النظرة الفاحصة تكشف للأدقّاء المتعمقين حقيقة هذه المدنية، وتبين في وضوح أن الأزمات الخلقية الراهنة النابعة من الغرب، تنم عن غلظة وفظاظة، لا نظير لهما إلا بين الوحوش الضارية، وإن الحربين العالميتين الأخيرتين، قد كشفتا لنا عن حقيقة هذه المخلوقات التي يعتبرها القشوريون عندنا ينابيع المدنية، وإن الحالة الراهنة تظهر لنا أن كل ما بينهم، هوعبارة عن كفاح وحشي حاد دائم، مخبوء تحت ستار الحقد والغل والجشع المغطى بالنفاق الكثيف حينًا، والخفيف أحيانًا، وأنهم غارقون في معارك

طاحنة لا نظير لها في عهود البشرية الأولى التي يطلق عليها أولئك المتبجحون الماجنون اسمي العصر الحجري، والعصر الحديدي.

وذلك لأنهم استخدموا في ضرواتهم البغيضة مقدرتهم العقلية. ووسائلهم التكنولوجية، ومخترعاتهم الميكانيكية، التي تزلزل تنوعاتها وتجديداتها المتوالية، جميع النظريات العلمية السابقة بمباغتاتها المفاجئة، فتقضي على مظاهر الاعتدال والاتزان، ولا تلبث أن تحقق رجحان إحدى الكفتين حينًا من الزمن، سرعان ما يزول. ويتخلى للكفة الأخرى عن ذلك الامتياز. وهكذا دواليك صعودًا وهبوطًا تتابعها الأبصار والعقول والقلوب بلا ثبات ولا استقرار.

وتلك بالإجمال هي حرب الفروض والتكهنات والرهبة والفزع والتسابق على الأسلحة المدمرة والجاسوسية والتنافس في مضاعفة الميزانيات لتقوية مصانع التخريب والتقويض. ومن المجون أيضًا أنهم يسمونها حروب المذاهب والمبادئ، وكان الأولى بهم أن يطلقوا علينا اسم «حروب القهر على التمذهب» أو الإجبار على اعتناق المبادئ، ولو لم تسترح لها العقول ولا القلوب.

غير أن هناك من بني الإنسان أفرادًا وجماعات، يعرفون واجباتهم، ويدركون أن الضرورة تحتم عليهم مجاراة أولئك الذين ليس لهم من الإنسانية إلا اسمها، ولكن إخلاصهم لبلادهم، وأملهم في إنقاذ مبادئهم من مخالب هذه الوحوش الضارية، يتطلبان منهم أن يسايروهم في الاستعداد استجابةً لأمر كتابهم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ لاسيما أنهم يعلمون تمام العلم زجاجية ذلك السلام الظاهري الزائف، الذي ينادي به أولئك المنافقون، ويوقنون بامتلاء قلوبهم بالحفائظ والتحفزات، للهجوم في كل لحظة من لحظات النهار والليل.

ولا ريب أن هؤلاء الأناس الجديرين باسم الإنسانية يعلمون أنه حين يجد الجد تتحدد مسؤوليتهم وتبدو هائلة. ومن ثم يستعدون لتلك الساعة، ويعدون مشروعاتهم التي ستتلاقى مع أمثالها، والتي هم يتنبؤون بها، ويحسبون حسابها، كأنهم يتغلغلون في أعماقها منذ الآن، لكي يستطيعوا – بفضل إتقان دراستها – أن يردوا على كوامن مشروعات أعدائهم وإلا تأخذهم ابتكارات أولئك الأعداء على غرة.

لذلك كله نحن ندعو الأمة العربية خاصة والأمم الإسلامية عامة أن تتكتل لمواجهة هذه الأخطار الوحشية، وأن تعتصم بحبل الله القوي المتين، وأن تنقب في دينها عن تلك المبادئ العالية، التي هي وحدها القديرة على تعميم السلام، وإنقاذًا للبشرية من هذه الوهدة، التي هي سائرة على حافتها، والتي لو لم تغشها تلك المبادئ السماوية، لتردت فيها، وقُضي عليها القضاءَ الأخير. ونهيب بالمسلمين ألا يقفوا سلبيين أمام هذه السيول العارمة، والعواصف العاتية، والأحداث المجتاحة، فليس أبغض إلى الإسلام، ولا أبعد تعاليمه من السلبية والجمود.

كما ندعوهم إلى أن يصونوا أبناءهم وبناتهم عن التحلل والميوعة بأحكام تربيتهم على النماذج الإسلامية، إذ أن التربية هي الوسيلة المثلى التي يوسس بها كل مجتمع في قلوب أبنائه الدعائم الجوهرية لوجوده الخاص، وهي الأثر الخالد الذي تتركه الأجيال الناضجة في نفوس الأجيال التي لم تنضج بعد، ولم تهيأ لحسن مزاولة الحياة الاجتماعية. وهدفها الرئيسي هو أن تنشئ وتنمى في تلك الأجيال الشابة مزيجًا من الشعور بالحاجة إلى العوامل الدينية والأخلاقية والعقلية، إلى جانب القوة البدنية التي هي ضرورية لقوام المجتمع بوجه عام، وللأوساط التي تحيا فيها بنوع خاص.

ومنشأ ضرورة التربية والحاجة الماسة إليها هو أن الطفل لا يحمل معه إلى الحياة إلا طبيعته الفردية بالأنانية الغريزية، ولكنه يحمل أيضًا الاستعداد لتعلية تلك الأنانية وترقيتها. ومعنى هذا أن المجتمع – بإزاء كل جيل جديد – يكون أمام صحيفة بيضاء ينبغي أن يبذل جهوده لينقش عليها ما يجعلها صالحة للحياة والسعادة المسعدة للغير أي أن المهيمنين على أموره يجب عليهم – عن طريق أصلح المناهج – أن يمزجوا بذلك الكائن الأناني كائنًا آخر عادلا معتدلا، قادرًا على قيادة حياة خلقية واجتماعية، لا تستطيع الوراثة أن تحققها له.

ولما كانت هذه الجهود في أشد الحاجة إلى مدنية دائمة السير إلى الأمام، لتكلل مساعيها بالنجاح، وتضمن لباذليها الفوز بنتائج جهودهم.

ولما كان كل متأمل في المدنية الغربية المادية، يتضح له تمام الاتضاح أنها سائرة إلى التدهور والاندحار بخطوات واسعة نرجو ألا تهوي بسببها الإنسانية كلها إلى الحضيض.

ولما كانت الحضارة الإسلامية هي وحدها المستقيمة المعتدلة المتزنة السائرة إلى التقدم والرفعة، ولم تكب عبر التاريخ في أية نكسة إلا بسبب تقصير أبنائها أو انحرافهم عن مبادئ دينهم القويم.

لما كان كل ذلك من الحقائق الواقعية الناصعة، فإن أقل ما يحقق الإنسانية من مسكة العقل، يحتم على المهيمنين على شؤون الأطفال والمراهقين ألا ينشؤوهم إلا على مبادئ التربية الإسلامية ليضمنوا لهم الاستقامة والقوة والشهامة والعدالة والسهر على إسعاد المجتمع الذي يعيشون فيه؛ بل على إسعاد الإنسانية جمعاء «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» «وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنًا».

وأكثر من ذلك أن مبادئ الإسلام لا تقف عند تسوية الغير بالنفس إلا بإزاء المسلم العادي، أما المسلم الذي يتطلع إلى مزيد من السمو، ويمد عيني قلبه إلى وغرة من رضاء ربه، وإلى رفعة منزلته الخلقية، ولا يكتفي بمستوى الأخيار، بل يرنو إلى مكانة الأبرار، فهو يفضل الغير على نفسه، ويقف في الدرجة الثانية أو الثالثة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

* * *

كيف انتشر الإسلام عند فتح مكة؟

بقلم: **الشيخ الجليل المحقق حبيب الرحمان العثماني الديوبندي**
(المتوفى: ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م)
رئيس الجامعة الإسلامية: دارالعلوم، ديوبند، الأسبق
تعريب: **الأستاذ محمد رضوان القاسمي**(*)

فتح مكة، وإعلانه - ﷺ - بالعفو العام

مكــة المكرمــة كانــت تُعتــبر منبعًــا ومركــزًا للإسـلام بـما فيهـا مـن بيـت الله الحـرام، كـما كانـت موطنًـا لكفـار قـريش وعاصـمةً للجزيـرة العربيـة، وهذه هي المدينة التي تحمّل فيها المسلمون الأولون أنواعًا من المصائب والشدائد من قِبل قريش، فلا ريب إنّ عمليّة فتح مكة اليوم كانت نعمةً من الله عظيمــةً، ومناســبةً للفــرح والتّبخــتر بالنــسبة للمسلمين. وتلك هي السّاعة التي انهارتْ فيها سـلطةُ كـبراء مكـة وقـوتُهم، وبلـغ المـسلمون أوج الرقيّ والازدهار؛ وبالتالي قد تغيّرتْ أحوالُهم ظهرًا لبطن؛ إذْ أنّهم كانت صِلاتُهم بالآخرين من العرب محـدودةً للغايـة قبـل الفـتح، وكانـت قبائـل العـرب تنتظرمـصير قـريش؛ فمعْظمُهـم يتوقّفـون في اعتنـاق الإسلام؛ ولكن عند ما تمّ الفتح وأسلمت قريش، فما لبث أن دخلت قبائل العرب في دين الله أفواجًا. ومن هنا نشأ فرق آخر في مكانة المسلمين، وهو أنّ من آمن وأنفق في سبيل الله قبل الفتح وقاتل، فهو أعظم ثوابًا عند الله وتقرّبًا ممن أنفق من بعد وقاتل: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد:١٠).

مكـة المكرمـة منـذ يومهـا الأوّل وحتـى اليـوم ظلّتْ قرية آمنةً مطمئنّةً؛ بحيث لم يؤذن لأحد من الناس قطّ أن يحارب أهلَها أو يهجم على ما فيها من بيت الله الحرام؛ بل ولم يكن ملكٌ من ملوك العالم هـو الآخـر أن يتجـرّأ عـلى ذلـك. والواقـع أن أرض الحـرم هـي التـي تُعتـبر المـأمن الوحيـد - الـذي مـن دخلـه كـان آمنًـا - في الدّولـة المحاربـة مثـل الجزيـرة العربية التي يخاف فيها القوافلُ دائمًا أن يتخطّفهم الناس؛ بل ويعيش كلٌّ منهم تحت ظلال الخوف في الحلّ والترحـال. ومـما يثيرالعجـب أن القبائـل التـي ظلّت تستعدّ لسفك الدماء فيما بينها طوال السنة على أمور تافهة، حينما يجتمعون في مكة المكرمة أيّام الحج عادوا يتآلفون فيما بينهم.

إرادة «أبرهة» هدمَ الكعبة

ولكـن هنـاك قـصّة فـيما يتعلّـق بـالهجوم عـلى

(*) الأستاذ بالجامعة الإسلامية العربية بجامع أمروهة/الهند.

الكعبة، وهي قصة أصحاب الفيل التي حدثت قبل ميلاد رسول الله -ﷺ- في زمن جدّه عبد المطلب. فإليك هذه القصة باختصار:

إنّ أبرهة نائب ملك الحبشة في اليمن أجمع السّير إلى بيت الله يريد هدمه، فأمر الحبشان، فتهيّأت وتجهّزت، وخرج معه بالفيل، ولما نزل أبرهة «المغمس» بعث رجلا من الحبشة، يقال له: الأسود بن مقصود، على خيلٍ له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال أهل مكة من قريش وغيرهم، وأصاب منها مئتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيّدها، فهمّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من سائر الناس بقتاله، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك، وبعث أبرهة «حناطة» الحميري إلى مكة، وقال له: سلْ عن سيّد هذا البلد وشريفه، ثم قل له: إنّ الملك يقول لكم: إني لم آت لحربكم؛ إنّما جئت لهدم البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم، فإن لم يرد حربي فأتني به.

فلما دخل حناطة مكة، سأل عن سيّد قريش وشريفها، فقيل له: عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه، وإن يخل بينه وبينه، فو الله ما عندنا من دفع عنه - أو كما قال له- فقال له حناطة: فانطلقْ إلى الملك، فإنه قد أمرني أن آتيه بك، فانطلق معه عبد المطلب، ومعه بعض بنيه، حتى أتى العسكر - وكان عبد المطلب رجلا عظيمًا وسيمًا جسيمًا- فلما رآه أبرهة أجلّه وأكرمه أن يجلس تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له حاجتك إلى الملك، فقال له ذلك الترجمان، فقال عبد المطلب: حاجتي إلى الملك أن يردّ عليَّ مئتي بعير أصابها لي، فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلّمتني، أتكلّمني في مئتي بعير قد أصبتها لك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك؟ قد جئت لهدمه لا تكلّمني فيه! قال له عبد المطلب:«إنّي أنا ربّ الإبل، وإنّ للبيت ربًّا سيمنعه»، قال: ما كان ليمنع مني، قال: أنت وذاك، اردد إليَّ إبلي.

وكان أبرهة قد ردّ على عبد المطلب الإبل التي أصابها له، فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرّز في شعف الجبال والشعاب تخوّفًا عليهم معرّة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب، وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

يا ربّ لا أرجو لهم سواكا

يا ربّ فامنع منهم حماكا

إن عدوّ البيت من عاداكا

امنعهم أن يخربوا قراكا

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة،

وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال، فتحرّزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها، فلما أصبح أبرهة تهيّأ لدخول مكة، وهيّأ فيله، وعبّى جيشه - وكان اسم الفيل محمودًا - فبرك الفيل وضربوه ليقوم فأبى، وضربوا في رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه ليقوم فأبى، فوجّهوه راجعًا إلى اليمن، فقام يهرول، ووجّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف، مع كلّ طير منها ثلاثة أحجار يحملها، حجر في منقاره، وحجران في رجليه مثل الحمص والعدس لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا، فخرجوا يتساقطون بكلّ طريق، ويهلكون على كلّ منهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم تسقط أنامله أنملة أنملة، كلّما سقطت منه أنملة اتبعتها منه مدة تمث قيحًا ودمًا، حتى قدموا به «صنعاء»، وهو مثل فرخ الطّير، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون[1].

هذه القصة العظيمة قد جعلتْ بيتَ الله الحرام أكثر عظمةً وحبًّا واعتقادًا في قلوب العرب بكثير من ذي قبل.

الحرم قد حلّ لرسول الله -ﷺ- ساعةً

هذه مزية من مزايا رسول الله -ﷺ- أنه قد حلّ له الهجومُ على مكة المعظمة والقتالُ فيها لساعةٍ من نهار، كما قال رسول الله -ﷺ- بدوره: «ألا وإنّها لم تحلّ لأحد قبلي، ولم تحلّ لأحد بعدي، ألا وإنها حلّت لي ساعةً من نهار»[2].

على الرغم من إجازة القتال قد أجمع النبي -ﷺ- المسيرَ إلى مكة المكرمة وهو يعتزم أنه سيعفو ويصفح عن أهل مكة قدر ما استطاع ، ويحافظ على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ويراعي حرمة بيت الله الحرام، ولايبادر إلى الحرب أوالقتال. وهناك حقائق تأريخيّة فيما يتعلّق بفتح مكة ستؤيّد ما قلنا في غاية من الوضوح، وذلك لمن كان له قلبٌ أو ألقى السّمع وهو شهيد.

وقد أسلفنا في قصة الحديبية أن المصالحة بين الفريقين كان قد تمّ عقدها لمدّة عشر سنواتٍ، وخلالها لم يصدر عن المسلمين أيُّ عمل يُعتبر نقضًا للعهد؛ على حين إن أهل مكة هم الذين ارتكبوا جريمة نقض العهد؛ فكان ذلك ممّا هاج المسلمين، وقصد النبيُّ -ﷺ- فتح مكة، ودعا ربه:

«اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها». وفي رواية قال: «اللّهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتةً ولا يسمعون بنا إلا فجأةً».

فوقع هذا الدّعاء موضع القبول؛ حيث نزل رسول -ﷺ- ضواحي مكة؛ وقد عميت الأخبار عن قريش؛ فلا يدرون ما هو فاعل؟ وهذا الدّعاء إنّما يعني أنّ قريشًا لو كانوا علموا بقدوم المسلمين مسبقًا؛ لأعدّوا لهم ما استطاعوا من قوّة؛ وبالتّالي وقعتْ المعركة الدامية التي لم يكن هو يرضى بها بشكل أو بآخر؛ وإنّما كان يتجنّبها ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

هجرة العباس بن عبد المطلب

وكان العباس بن عبد المطلب: عمُّ رسول الله -ﷺ- يتوجّه تلقاء المدينة مهاجرًا إليها؛ فلقي رسولَ الله -ﷺ- ببعض الطريق؛ فأمره أن يرسل رحلَه إلى المدينة ويعود معه، وقال له: «أنت آخر المهاجرين، وأنا آخر الأنبياء»(٣).

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب - ابن عم رسول الله - ممّن عادى الإسلام أشدّ المعاداة، ولم يألُ جهدًا في إيذاء المسلمين؛ وكان شُغْله الشّاغل أنّه يهجو رسول الله -ﷺ- وأصحابَه، و لطالما وقف في وجهه -ﷺ-؛ فلقي هو وعبد الله بن أبي أميّة بن المغيرة رسول الله بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمس الدخول على رسول الله، فكلّمته أمّ سلمة فيهما، فقالت: يا رسول الله! ابن عمّك وابن عمتك وصهرك، قال: لا حاجة لي بهما، أمّا ابن عمّي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال بمكة ما قال.

فلما خرج الخبر إليهما بذلك، ومع أبي سفيان بنيّ له قال: والله ليأذننّ لي أو لآخذن بيد بنيّ هذا، ثم لنذهبن في الأرض، حتى نموت عطشًا وجوعًا، فلما بلغ ذلك رسولَ الله رقّ لهما، ثم أذن لهما، فدخلا عليه، فأسلما، وأنشد أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى منه:

لعمرك إني يوم أحمل راية
لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله
فهذا أواني حين أهدى وأهتدي

وقيل: إنّ أبا سفيان لم يرفع رأسه إلى النبي -ﷺ- حياءً منه(٤).

قد أسلم أبوسفيان بن الحارث وحسن إسلامه؛ فكان ممن ثبت مع رسول الله -ﷺ- من المهاجرين والأنصار وأهل بيته يوم «حنين»، حينما شدّت الكتائب على المسلمين شدّةً، وانهزم الناس وطلقاء مكة أجمعون، ولايلوي أحد على أحد؛ فكان أبو سفيان يقود بالنّبي -ﷺ- بغلته يوم حنين، فلما غشي النبي -ﷺ- المشركون، نزل فجعل يرتجز، ويقول:

أنا النّبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

أبوسفيان بن حرب قدرَ ما كان يعاند ويُبغض الرسولَ ﷺ، والإسلامَ والمسلمين، من شأنه أن يكون هو رئيسَ كفّار مكة ومالكَ زمام أمورهم؛ فلقد تولّى هذا المنصب قبل إسلامه. ومن ثَمّ كان هو داعيًا إلى أكثر المعارك التي وقعت بين قريش والمسلمين، وهو يتولّى قيادة قريش في غزوة «أحد»، فلما انتصر فيها قريش موقّتًا وزلزلت أقدام المسلمين، ظنّ أبوسفيان أنهم قدانتصروا؛ فهتف بصوت عال: «اعلُ هبل» وأقنع نفسَه قائلا: «يومٌ كيوم بدر». وهكذا تحت قيادته كان قد حزّب الأعداءُ الأحزاب - وهم ١٥، ١٦ ألفًا - وهاجموا المدينة المنوّرة؛ فحاصروها أيّامًا؛ فحفر المسلمون الخندق، وسُمّيت الغزوة: «غزوة الخندق» و«غزوة الأحزاب».

هذا ضوءٌ خاطف على ما قام به أبوسفيان بن حرب من الأفاعيل ضدّ الإسلام والمسلمين؛ ولكن رغم ذلك كله قد عفا عنه رسول الله -ﷺ-

بسهولةٍ ويسر و دونما عقوبةٍ ، وتقبّل إسلامَه؛ كما يدلّ على ذلك قصة إسلامه التالية:

إسلام أبي سفيان

قال العبّاس بن عبد المطلب - وقد نزل رسول الله ﷺ «مر الظهران» في عشرة آلاف فارس-: يا صباح قريش! والله لئن بغتها رسول الله في بلادها، فدخل مكة عنوة، إنه لهلاكٌ قريش آخر الدّهر! فجلس على بغلة رسول الله البيضاء، فهو يقول بنفسه: خرجتُ إلى «الأراك» لعلّي أرى حطابًا أو صاحب لبن، أو داخلا يدخل مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله، فيأتونه فيستأمنونه فخرجت، فو الله إني لأطوف في الأراك ألتمس ما خرجت له، إذ سمعت صوت أبي سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، وقد خرجوا يتحسّسون الخبر عن رسول الله، فسمعت أبا سفيان وهو يقول: والله ما رأيت كاليوم قطّ نيرانًا! فقال بديل: هذه والله نيران خزاعة، حمشتها الحرب! فقال أبوسفيان: خزاعة ألأم من ذلك وأذلّ! فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة! فقال: أبو الفضل! فقلت: نعم، فقال: لبّيك فداك أبي وأمي! فما وراءك؟ فقلت: هذا رسول الله ورائي قد دلف إليكم بما لا قبل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين.

قال: فما تأمرني؟ فقلت:تركب عجز هذه البغلة، فأستأمن لك رسول الله، فو الله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فردفني فخرجت به أركض بغلة رسول الله نحو رسول الله، فكلمّا مررت بنار من نيران المسلمين ونظروا إليّ، قالوا: عمّ رسول الله على بغلة رسول الله، حتى مررتُ بنار عمر بن الخطاب، فقال: أبو سفيان! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد! ثم اشتدّ نحو النبيّ، وركضت البغلة، وقد أردفت أبا سفيان، حتى اقتحمت على باب القبّة، وسبقت عمر بما تسبق به الدابة البطيئة الرجل البطيء، فدخل عمر على رسول الله، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان عدوّ الله، قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعْني أضرب عنقه، فقلت: يا رسول الله، إني قد أجرته! فقال رسول الله: اذهب فقد أمناه حتى تغدو به عليّ بالغداة، فرجع به إلى منزله، فلما أصبح غدا به على رسول الله، فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله! فقال: بأبي أنت وأمي، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئا، فقال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله! فقال: بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! أما هذه ففي النفس منها شيء! فقال العباس: فقلت له ويلك! تشهد شهادة الحق قبل والله أن تضرب عنقك، قال: فتشهد، قال: فقال رسول الله للعباس حين يشهد أبو سفيان:انصرف يا عباس فاحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادي، حتى تمر عليه جنود الله، فقلت له: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحبّ الفخر، فاجعل له شيئًا يكون في قومه، فقال: نعم! من دخل دار أبي سفيان فهو آمن(٥).

ولا شكّ أن المسلين كانت تراودهم الأماني،

وتثـور في قلـوبهم العواطـف بمناسـبة هـذا الفـتح الأعظـم؛ فلـما فـرّق رسـول الله -ﷺ- جيشه مـن ذي طـوى أمـر الـزبيرَ بـن العـوام أن يـدخل في بعـض الناس من «كداء»، وكان الزبيرعلى المجنبة اليسرى، وأمرسعدَ بـن عبـادة أن يـدخل في بعـض النـاس مـن «كدي»، فحين وجّه سعد داخلًا، قال:

اليوم يوم الملحمة - اليوم تستحلّ الحرمة.

فلما سمع رسول الله -ﷺ- ذلك، قال لعليّ: أدْرِكْه فخذ الراية منه؛ فكن أنت تدخل بها. وقال: بل هـذا يـوم تعظـم فيـه الكعبـة. وأمـر بالرايـة- رايـة الأنـصار- أن تؤخـذ مـن سـعد بـن عبـادة كالتأديـب له[٦]. وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: كذب سعد، اليوم يوم المرحمة[٧].

وقـد كـان رسـول الله -ﷺ- عهـد إلى أمرائـه حـين أمـرهم أن يـدخلوا مكـة أن لا يقـاتلوا إلا مـن قاتلهم؛ فدخل المسلمون مكة، ولم يحاربوا أحدًا إلا خالـد بـن الوليـد؛ فقـد أمـره رسـول الله -ﷺ- أن يـدخل مـع جملـة مـن قبائـل العـرب مـن أسـفل مكـة، وقـال: لا تقـاتلوا إلا مـن قـاتلكم، وكـان صـفوان بـن أميـة وعكرمـة بـن أبي جهـل وسـهيل بـن عمـرو قـد جمعوا ناسًا بالخندمة - وهـو جبـل بمكـة - ليقـاتلوا، فلـما لقـيهم خالـد بـن الوليـد رضي الله تعـالى عنـه بالمحل المذكور منعوه الدخول ورموه بالنبل، وقالوا له: لا تدخلها عنوةً، فقاتلهم خالد، فهزمهم الله - عز وجل - ولم يكن بمكة قتال غير ذلك[٨].

أعلن رسول لله -ﷺ- بالأمان متمثلا في صور كثيرة

قبل أن يدخل النبي -ﷺ- والمسلمون مكة المكرمة، نـادى مناديـه أنّ أهـل مكـة عـلى أمـان منـه، واقترح النّبي لذلك من الصّور السهلة المتنوعة ما لا يدَع أحدًا محرومًا؛ فقال:

«من كفّ يده وأغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخـل دار أبي سـفيان فهـو آمـن، ومـن دخـل المسـجد فهـو آمـن، ومـن ألقـى سـلاحه فهـو آمـن، ومـن دخـل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن»[٩].

إنّها صُوَرٌ وأشكالٌ كثيرة للحصول على الأمان لم يكـن أحـد أن يحرمهـا إلا مـن كـان سيّء الحظّ، وقـد أظهـر رسـول الله -ﷺ- مـن صـور الأمـان مـا قـد قـرأتَ، نظرًا إلى مـا كـان عليـه أهـل مكـة آنـذاك: مـن الحالـة الطبيعيّـة والحماسـة القلبيّـة، والكراهيـة ضـد المسلمين والابتعاد عنهم، والغفلة والجهالة، ويعني ذلـك - الأمـانُ العـام - أنّـه إن خـرج أحـد مـنهم للمبارزة في غفلة منه وجهالة؛ فهو يعود آمنًا بمجرّد استسلامه للمسلمين.

ولمـّا دخل المسلمون مكة يوم فتحها من أبواب متفرّقـة، خلَفَهـم النبيُّ -ﷺ- في ذلـك؛ فكـان مـن الممكـن جـدًا أن تبـدو على وجهه المنوّر بمناسبة هذا الفتح الأكبر ملامحُ البشر والنّشاط، إلى جانب قيامه بـشكر الله عـز وجـل، وكـان هـذا العمـل محمـودًا مستحسنًا، عملًا بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَـةِ رَبِّـكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:١١). ولكن لم يظهر ذلك؛ لأنّ نظرته كانت عالقة عندئذ بقدرة الله الكاملة، وقلبه المبـارك كـان معمـورًا بهيئتـه تعـالى وجلالـه؛ فتتجلّى عليـه آثـار التّواضـع والانكـسار؛ وإنـه ليـضع رأسـه

تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن عثنونه ليكاد يمسّ واسطة الرحل. وفي رواية: دخل رسول الله -ﷺ- مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشّعًا(١٠).

حكم الرمل

وكان فيما مضى موقفٌ، وهو موقف عمرة القضاء، إذْ ظنّتْ قريش أنّ المسلمين قد وهنهم الفقرُ وحمّى المدينة وجوُّها كثيرًا؛ فأمرهم النبي -ﷺ- أن يُبدوا شجاعتهم وقوّتهم أمامهم؛ فلما رمل المسلمون في أشواط الطواف عملًا بقوله -ﷺ-، كانت قريش قد خاب ظنّها فيهم. وها هو ذا موقف اليوم - يوم الفتح الأكبر- الذي يأمر فيه رسول الله -ﷺ- أصحابه أن يتواضعوا ويعاملوا بالرّفق ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. وذلك إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن رسول الله -ﷺ- إنّما كان يُهِمُّه دائمًا ابتغاء وجه الله تعالى وإظهار محامد الإسلام ومحاسنه. ولاشك أنّ اليوم كان يسرّه الكثرةُ الكاثرة من المسلمين وهيبتُهم وعزّتهم؛ ولكنه رغم ذلك لا يتعالى بأيٍّ من سلوكه.

هناك نفرٌ، أمر رسول الله -ﷺ- بقتلهم

وقد أسلفنا أن رسول الله -ﷺ- عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة، ألا يقتلوا أحدًا إلا من قاتلهم؛ إلا أنه قد أمر بقتل ثمانية رجال وأربع نسوة وان وُجدوا تحت أستار الكعبة؛ وأخيرًا قد حصل لهم الأمان والعفو إلا البعض؛ فأسلم هم الآخرون، فممّن أسلم منهم من الرجال فيما يلي:

عكرمة بن أبي جهل: كان يشبه أباه في إيذاء رسول الله -ﷺ- وعداوته والإنفاق على محاربته، فلمّا فتح رسول الله -ﷺ- مكة، خافه على نفسه، فهرب إلى اليمن، وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فاستأمنت له، وخرجت في طلبه، وأدركت عكرمةَ وهو يريد ركوب البحر، فقالت: جئتك من عند أوصل الناس، وأحلمهم، وأكرمهم، وقد آمنك، فرجع، فلما قدم على رسول الله -ﷺ- سرّ به، فأسلم.

صفوان بن أمية بن خلف: وكان أيضًا شديدًا على النبي -ﷺ- فهرب خوفًا منه إلى «جدة»، فقال عمير بن وهب الجمحي: يا رسول الله، إن صفوان سيّد قومي، وقد خرج هاربًا منك فآمنه. قال: هو آمن، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة ليعرف بها أمانه، فخرج بها عمير فأدركه بجدة، فأعلمه بأمانه وقال: إنه أحلم الناس وأوصلهم، وإنه ابن عمّك، وعزّه عزّك، وشرفه شرفك. قال: إني أخافه على نفسي. قال: هو أحلم من ذلك، فرجع صفوان، وقال لرسول الله -ﷺ-: إن هذا يزعم أنك آمنتني، قال: صدق. قال: اجعلني بالخيار شهرين. قال: أنت فيه أربعة أشهر. فأقام معه كافرًا، وشهد معه حنينًا والطائف، ثم أسلم وحسن إسلامه، وتوفّي بمكة عند خروج الناس إلى البصرة ليوم «الجمل».

من له عدلٌ في قلبه وعقلٌ في رأسه؛ فهو يستطيع أن يفهم في ضوء الواقعة المذكورة وحدها، أنه كم أُلتزم من اللّين والعفو في سبيل انتشار

الإسلام؛ إذ أنّ الرجل الذي قد مضت حياته كلها في عداء الإسلام، وامتاز بأنه يهجو النبي -ﷺ- في أشعاره، وبحكم هذه العادات السّيئة والأفعال القبيحة قد حُرِم العفوَ عنه واستحقّ القتل .. فلمثل هذا الرجل يُرسل النبي -ﷺ- عمامته ليعرف بها أمانه، ثم يحضر هو خدمتَه، ويستمهله لمدة شهرين؛ ولكنّه -ﷺ- يعطيه مهلة أربعة أشهر بدل شهرين، وهذه الإطالة منه لاتعني أنه سوف يُقتل بعد أربعة أشهر إذا لم يؤمن؛ وإنما تعني أنه سوف يؤذن له بالذّهاب في أمن وسلام إلى حيث جاء منه.

بعد مثل هذه الوقائع والمواقف الواضحة النيّرة أيضًا، توجيه الاتهام بأن «الإكراه» له دورٌ في انتشار الإسلام، ليس مما يجوّزه أحدٌ من أولي الألباب. اللّهمّ إلا من جعلته العصبيّةُ والعناد مسلوبَ الحواسّ، ولم يَبق له تمييزٌ بين الخير والشر؛ فله أن يتقوّل ما يشاء. وهذه الواقعة تؤكّد في صراحةٍ أن الإيفاء بالعهد لابدّ منه في تعاليم الإسلام الصادقة؛ بحيث لايجوز لأحد أن ينقض ذلك بشكل أو بآخر.

عبد الله بن سعد بن أبي سرح من بني عامر بن لؤي: وكان قد أسلم وكتب الوحي إلى رسول الله -ﷺ- فكان إذا أملى عليه: «عزيز حكيم»، يكتب: «عليم حكيم» وأشباه ذلك، ثم ارتدّ وقال لقريش: إني أكتب أحرف محمد في قرآنه حيث شئتُ، ودينكم خير من دينه، فلما كان يوم الفتح، فرّ إلى عثمان بن عفان، وكان أخاه من الرضاعة، فغيبه عثمان حتى اطمأن الناس، ثم أحضره عند رسول الله -ﷺ- وطلب له الأمان، فصمت رسول الله -ﷺ- طويلا ثم آمنه، فأسلم.

عبد الله بن الزبعرى السهمي: وكان يهجو رسول الله -ﷺ- بمكة، ويعظم القول فيه، فهرب يوم الفتح هو وهبيرة بن أبي وهب المخزومي: زوج أم هانئ بنت أبي طالب - إلى «نجران»، فأما هبيرة فأقام بها مشركا حتى هلك، وأما ابن الزّبعرى فرجع إلى رسول الله -ﷺ- واعتذر، فقبل عذره، فأنشد أشعارًا كثيرة حين أسلم يعتذر فيها، ومنها:

يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي
رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
إِذْ أُبَارِي الشَّيْطَانَ فِي سُنَنِ الْغَيِّ
وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ
آمَنَ اللَّحْمُ وَالْعِظَامُ بِرَبِّي
ثُمَّ نَفْسِي الشَّهِيدُ أَنْتَ النَّذِيرُ

وحشي بن حرب: وهوقاتل حمزة، فهرب يوم الفتح إلى الطائف، ثم قدم في وفد أهله على رسول الله -ﷺ- وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمّدًا رسول الله. فقال النبي -ﷺ-: أوحشيّ؟ قال: نعم. قال: أخبرني كيف قتلت عمّي؟ فأخبره، فبكى وقال: غيّبْ وجهك عنّي. قال - وحشيّ-: فكنت أتنكب برسول الله -ﷺ- حيث كان؛ لئلا يراني حتى قبضه الله عز وجلّ، فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة، خرجت معهم وأخذت حربتي التي قتلت بها حمزة، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة قائمًا وبيده السيف

وما أعرفه، فتهيّأت له وتهيّأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى كلانا يريده، فهزّزت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فيه.

فأما النّساء اللاتي أسلمن فمنهن:

هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: وقد وقفت هي والنّسوة الّلاتي معها يوم «أحد» يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله -ﷺ-، يجدعن الآذان والأنوف، وبقرت عن كبد حمزة، فلاكتْها فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها ثم علت على صخرة مشرفة، فصرخت بأعلى صوتها بما قالت من الشّعر حين ظفروا بما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ، فبقيت هند على حالتها إلى فتح مكة؛ فلما أمر رسول الله -ﷺ- أباسفيان يوم فتح مكة أن يخبر قريشًا أن محمّدًا قد جاءكم، ومن دخل أوفعل كذا فهو آمن، جاء أبوسفيان قومه، وصرخ بأعلى صوته يا معشر قريش! هذا محمّد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بِشارِبه فقالت: اقتلوا الحميت الدّسم الأحمس قبح من طليعة قوم، فقال أبو سفيان: ويلكم لا تغرّنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به.

وكان رسول الله -ﷺ- أمر بقتلها لما فعلت بحمزة، ولما كانت تؤذيه -ﷺ- بمكة، فجاءت إليه مع النّساء مختفيةً فأسلمت، وكسرت كل صنم في بيتها، وقالت: لقد كنا منكم في غرور، وأهدت إلى رسول الله -ﷺ- جَدْيَيْنِ، واعتذرت من قلّة ولادة غنمها، فدعا لها بالبركة في غنمها فكثرت، فكانت تهب وتقول: هذا من بركة رسول الله -ﷺ- فالحمد لله الذي هدانا للإسلام(١١).

ولايعْزُبنّ عن البال أن ما ذكرناه من الأحوال والأحداث في هذا الباب، إنما تدلّ على رحمته -ﷺ- وشفقته، وعفوه وتسامحه، وحسن أخلاقه وغاية ليْنه، وهي كلّها قد وقعت عند فتح مكة.

* * *

الهوامش:

(١) تاريخ طبري٢/١١٠،١١٤، ذكر بقية خبر تبع أيام قباذ وزمن أنوشروان وتوجيه الفرس الجيش إلى اليمن لقتال الحبشة وسبب توجيهه إياهم إليها بحذف وتغيير يسير.

(٢) رواه البخاري في باب كتابة العلم، ج:١،ص:٢٢، وفي باب من قتل له قتيل فهوبخيرالنظرين، كتاب الديات، ج:٢، ص:١٠١٦.

(٣) الكامل في التاريخ:٢/٩٢، ذكر فتح مكة. السيرة الحلبية: فتح مكة شرفها الله.

(٤) تاريخ الطبري: ٣/١١٤، ذكر الخبر عن فتح مكة. الكامل في التاريخ:٢/٩٢، ذكر فتح مكة.

(٥) ملخّصًا من تاريخ الطبري: ٣/١١٦، ذكر الخبر عن فتح مكة. الكامل في التاريخ:٢/٩٤، ذكر فتح مكة.السيرة الحلبية: فتح مكة شرفها الله. البداية والنهاية: غزوة الفتح الأعظم.

(٦) البداية والنهاية:٤/٢٩٥، صفة دخوله عليه السلام مكة.

(٧) السيرة الحلبية:٣/٨٢، فتح مكة شرفها الله.

(٨) البداية والنهاية:٤/٩٧ ٢٩٦صفة دخوله عليه السلام مكة. السيرة الحلبية:٣/٨٢ فتح مكة شرفها الله تعالى. تاريخ الطبري: ذكر الخبر عن فتح مكة.

(٩) مقتبس من السيرة الحلبية:٣/٨٠ فتح مكة شرفها الله تعالى.

(١٠) البداية والنهاية:٤/٢٩٣،صفة دخوله عليه السلام مكة.

(١١) وللاستزادة من التفاصيل راجع: الكامل في التاريخ:٢/٩٤، ذكر فتح مكة. تاريخ الطبري:٣/١١٩ ذكر الخبر عن فتح مكة. و ٣/٢٣، غزوة أحد. البداية والنهاية: صفة دخوله عليه السلام مكة:٤/٣٠٨، مقتل حمزة: ٤/١٨.

* * *

الإســراء والمعــراج

وأثر ذكراهما في نفوسنا في الظروف الحالية

بقلم: الدكتور/ محمد سلام مدكور

الإسراء في الاصطلاح الشرعي: هو انتقال النبي ﷺ من مكة التي بها المسجد الحرام إلى بيت المقدس بالشام.

والمعراج: يراد به صعود النبي - صلوات الله وسلامه عليه- من بيت المقدس من مكان العبادة والسجود – موضع المسجد الأقصى – إلى السموات العلا وما وراء الحجب، مخترقًا الفضاء بأمر الله وإرادته وقدرته التي لا تحد ولا تخضع للسنن الكونية.

فالإسراء والمعراج رحلتان دينيتان عزيزتان: إحداهما أرضية وهي الإسراء لأنها بدأت من مكة التي بها المسجد الحرام، والتي أصبحت كلها حرما إلى مكان العبادة والتقديس بيت المقدس عند موضع المسجد الأقصى. وهذه الرحلة التي ذكرها الله سبحانه في قوله: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾.

أما الرحلة الثانية: فإنها سماوية من بيت المقدس حيث انتهت الرحلة الأولى والتقى الرسول فيها ببعض إخوانه من النبيين الذين بعثهم الله في تلك الليلة لاستقباله وتحيته إلى السموات السبع، ثم سدرة المنتهى، ثم إلى ما فوق ذلك مما لا تدركه عقولنا ولا تنفذ إليه حيث رأى وسمع ما لا يعلمه إلا الله. وهذه الرحلة هي التي يشير إليها – كما يقول المفسرون – ما جاء في سورة النجم من قول الله سبحانه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾.

وهاتان الرحلتان من أبرز الخوارق التي أكرم الله بها رسوله إيناسًا له وطمأنةً لخاطره، وقد لاقى من قومه الكثير من الأذى والعناد فلم يلن جانبه ولم

ينخل عن دعوته أو يتوانَ فيها. بل صبر وثابر وتحمل الأذى وقاوم فاستحق أن ينعم الله عليه بهذا الفضل وأن يعطيه هذا الأجر ليثبت فؤاده ويقوى إيمانه وليتخذ منها زادًا يدفعه إلى الأمام ويمسح عنه الآلام ويمهد له حياة جديدة يرى فيها إشراقة النور الإلهي تغمر قلبه، وتبث فيه آيات الرضا والاطمئنان.

* * *

كان يوم الاثنين ليلة سبع وعشرين من شهر رجب قبل الهجرة بعام وكان ذلك يوافق سنة ٦٢١م وفي هجيع الليل والناس نيام حدثت الرحلتان. إذ أخبر الصادق الأمين الناس عندما استيقظوا من نومهم أنه استيقظ عقب نومه على صوت يصيح به: أيها النائم قم. فقام وإذا به أمام الملك جبريل وفي يديه دابة عجيبة هي البراق لها أجنحة كأجنحة النسر، وطلب الملك جبريل منه أن يمتطيها، فلما هم انحنت له، ثم انطلقت به انطلاقة السهم متجهة نحو الشمال وبصحبته الملك جبريل، ووقف به البراق عند جبل سيناء. حيث كلم الله موسى. ثم وقف مرة أخرى في بيت لحم حيث ولد عيسى ثم انتهى به إلى بيت المقدس. وهناك صلى على أطلال هيكل سليمان، ومن خلفه من أوفدهم الله سبحانه من الأنبياء لاستقباله.

ثم بدأ الرحلة الثانية من حيث انتهت الرحلة الأولى فعرج به إلى السماء مخترقا الحجب والفضاء حتى السموات السبع ثم سدرة المنتهى التي ينتهي عندها جبريل فلا يتعداها، ثم كرمه ربه أكثر من ذلك فرأى نور ربه واستمع إلى أوامره وهو الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وقدرة الله لا تحد، ولا يحول بين تنفيذ إرادته شيء وصدق الله العظيم: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

وفي هذه الرحلة السماوية فرض الله على الأمة الإسلامية فريضة الصلاة وجعلها خمس صلوات في اليوم والليلة، والصلاة هي أبرز أركان الجانب العملي في الإسراء والمعراج، كما أنها الركن الأول العملي من أركان الإسلام؛ بل هي عماد الدين.

وكان لابد أن يحدث رسول الله قريشا عن رحلته الخارقة للعادة، ويبلغ المسلمين أمر ربه بتكليفهم بالصلاة، فلما همّ بالخروج بعد أن أخبر من معه في الدار أشفقت عليه أم هانئ – أخته في الرضاعة وبنت عمه وكان يبيت عندها تلك الليلة – وحاولت أن تحول بينه وبين ذلك خشية أن يكذبه الناس أو تسخر منه قريش وقالت: يا نبي الله! لا تحدث الناس فيكذبوك ويؤذوك! فقال: والله لأحدثنهم. وكان ما توقعته أم هانئ؛ بل ارتد بعض المسلمين وقالوا: والله إن العير لتسير شهرًا من مكة إلى الشام مدبرة وشهرًا مقبلة أفيذهب محمد في ليلة

واحدة ويرجع؟! وذهب ناس إلى أبي بكر فقالوا: هل علمت يا أبابكر أن صاحبك يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة، فلم يصدقهم أبوبكر فيما نسبوه إلى الرسول. ولما استوثق من صدق الرواية عن الرسول عليه السلام صدق وقال: والله لئن كان الرسول قال هذا فإني أؤمن به وأصدقه، وما تعجبكم من ذلك؟! إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تتعجبون منه!! وذهب للقاء الرسول، وكان نفر من قريش – وقد بلغهم الخبر – قد طلبوا منه صلوات الله عليه أن يصف لهم بيت المقدس، فأخبرهم عنه ووصفه لهم وصفًا دقيقًا، وكان أبوبكر قد زاره من قبل، فكلما سمع منه وصفًا صدق وآمن وقال: إنه الحق، كما أخبرهم الرسول عن قوافلهم التجارية إلى الشام وعن عيرهم أين لقيها ومتى تصل. فآمن الكثير منهم عندما تأكدوا من صحة ما قال. وذلك بعد أن كانوا يظنون به الظنون.

وبهذه الرحلة المباركة يكون الله سبحانه -جلّ شأنه- قد ربط بهذا الأمر بين أول بقعتين في الأرض خصصتا للعبادة كما ربط بعد ذلك في الرحلة الثانية بين السماء والأرض وجمع بذلك الكون كله فتكشفت له خصائصه، وأراه الله من آياته الكبرى ما لم يره أحد. وقد سجل القرآن الكريم ذلك في سورتي الإسراء والنجم في قوله: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ وفي قوله: ﴿.. مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ..﴾.

وقد اختلف الكتاب وبعض المفسرين في كيفية الإسراء والمعراج. هل حدث له -صلوات الله عليه- ذلك بجسده وروحه أم بالروح فقط دون الجسد؟

فهناك من قال: إنهما كانا بالروح فقط.

وهناك من فرق في ذلك بين الإسراء والمعراج، فقال: إن الإسراء كان بالروح والجسد أما المعراج فقد كان بالروح وهو في اليقظة. ومن هؤلاء الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

وذهب الأكثرون إلى أن كلا من الإسراء والمعراج كان بالروح والجسد معًا؛ لأن الله سبحانه أشار إلى حادث الإسراء إشارة صريحة إذ يقول: «سبحان الذي أسرى بعبده».. وهذا يفيد أن الإسراء كان في اليقظة بالروح والجسد؛ لأن الله سبحانه صدر الخبر بقوله «سبحان..» ليشعر بأن من فعل هذا وأحدثه يستحق التنزيه والتعظيم، كما أن الإسراء لم يكن من عمل الرسول نفسه، وإنما كان يفعل الله إذ يقول: «أسرى بعبده..»فنسب الإسراء به إليه جلّ شأنه، كما أن أخباره بأنه أسرى بعبده

والعبد ليس روحًا فقط ولا جسدًا فقط وإنما هو الروح والجسد معًا، فهذا يفيد أيضا أن الإسراء كان في اليقظة وبالروح والجسد.

واستدل المفسرون على أن الإسراء إنما كان بالروح والجسد وفي حال اليقظة بجملة أحاديث بلغ رواتها أكثر من ستة وعشرين صحابيًّا وأدت كلها هذا المعنى.

على أن موقف قريش، وتعجب أم هانئ وخشيتها عليه من أن تسخر به قريش حين قص عليها ما وقع له، وارتداد بعض المسلمين عند سماع ذلك، وعدم تصديق أبي بكر رضي الله عنه نسبة الخبر للرسول أولا، كل ذلك لا يتفق بحال مع القول بأن ذلك كان مجرد رؤيا وهو نائم أو حتى أنه كان في حال اليقظة؛ لكنه كان بالروح فقط؛ إذ لا عجب ولا غرابة في شيء من هذا حتى بالنسبة للفرد العادي فقد يرى الشخص العادي مثل ذلك في منامه ويتنقل في رؤياه من مكان إلى مكان ومن صورة إلى صورة سواء كان بينهما تقارب أو تباعد، كما يمكن أن يتخيل الفرد في يقظته أن روحه سبحت في الفضاء، ويتخيل صورًا كثيرة بعيدة وقريبة ويتصور كلاما ونقاشًا وأفعالا عديدة خارقة وفوق ما يتصوره العقل، وإذا ما قصه على الناس على هذا الوصف لا يأخذهم شيء من العجب والاستغراب، ولا يأبه أحد لما يقول، ولا يخشى من تكذيب الناس له والانشقاق عليه واتهامه بالكذب والجنون.

ثم ما معنى قول الله سبحانه: «ما زاغ البصر وما طغى» والبصر لا يزيغ ولا يطغى إلا في الجسم، وإذا كان من المسلم به أن الصلاة فرضت في هذه الرحلة فكيف يستسيغ العقل أنها كانت نتيجة رؤيا أو خيال، ولِمَ لم يوح إليه بها كسائر التكاليف والعبادات.

وإذا كنا نؤمن ونصدق بأن الله أوحى إليه ما أوحى، وأن ملك السماء ينزل عليه بأمر ربه، فما الذي يوجد شيئا من التردد في تصور حدوث ذلك بالروح والجسد وحصوله فعلا وقدرة الله لا تقف عند حد، ولا تخضع لتصور العقل.

وإذا كان هذا من الأمور السماعية التي لا مجال للعقل في الحكم عليها، وإنما يخضع الأمر فيها إلى الإيمان الكامل بالله والتصديق برسالة محمد ﷺ ففيم الجدل والخلاف. ورحم الله أبابكر فقد أصاب كبد الحقيقة. ووضع الدليل واضحًا أمام كل مؤمن بالله ورسالة محمد حين قال: والله لئن كان الرسول قال هذا فإني أؤمن به وأصدقه، وما تعجبكم من ذلك؟! إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في لحظة فأصدقه.

* * *

على أن المعجزات والخوارق كثيرة متباينة حتى

في خلق الإنسان نفسه، وكلها فوق إدراك العقل وتصوره وكلها لا تخضع للنواميس الطبيعية، ولا تأتي على وفق ما هو معتاد وإلا لما كانت معجزات.

وقد حدثنا القرآن كما حدثتنا الكتب السماوية السابقة عن الكثير من الخوارق والمعجزات، فآمنا بها وصدقنا نتيجة إيماننا بالله ورسالاته. فلِم يريد بعض الناس إخضاع هذه المعجزة دون غيرها لحكم العقل؟!

وهل كانت معجزة عصا موسى التي شق بها البحر، والتي انقلبت ثعبانًا يجري أمام السحرة حلما وخيالا؟!

وهل خلق عيسى بن مريم من غير أب أمر يخضع لمنطق العقل. وهل تكلم عيسى وهو في المهد صبيًّا عندما سأل الناس مريم عنه وهي تحمله رضيعًا، فأشارت إليه، فقالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبيًّا. قال: إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت.. هل هذا مما يخضع لمنطق العقل؟

وهل تسخير الريح لسليمان يستخدمها في غدوه ورواحه مما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ﴾ هل هذا مما يخضع لمنطق العقل؟!

وهل قصة بلقيس، وقد طلب نبي الله سليمان عرشها فنقل من اليمن إلى الشام قبل أن يرتد إليه طرفه كما يحدثنا القرآن على لسان سليمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ﴾ هل هذا مما يخضع لمنطق العقل.

وهل قصة المائدة التي نزلت على عيسى بناءً على طلب الحواريين ودعوته لربه وهي التي أشار إليها قول الله: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ﴾ فهل هذا مما يخضع لمنطق العقل؟.

إلى غير ذلك من المعجزات والخوارق الكثيرة التي حدثت عنها الكتب السماوية مثل إلقاء إبراهيم في النار وعدم احتراقه بها وإنما كانت بردًا وسلامًا، وجمعه عليه السلام أربعة من الطير وتقطيعها وجعله

على كل جبل منهن جزءًا ثم دعوته لها واستجابتها لدعوته مسرعة بإذن الله ليريه كيف يحيي الموتى ويشير إلى القصة الأولى قول الله تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾. ويشير إلى القصة الثانية قول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾.

وما دام العقل يقبل المعجزات والخوارق وإن كانت فوق المستوى، فلِمَ الجدل والنقاش حول الإسراء والمعراج وكونه في المنام أو في اليقظة بالروح فقط أو بالروح والجسد؟ فلتكن هذه معجزة من المعجزات العديدة التي تدل على قدرة الله وعظمته. أليس الله بقادر على أن يحيي الموتى ويبعث من في القبور وهو على كل شيء قدير، وقدرته سبحانه فوق الشك والتهم.

وإذا كان من الفلاسفة من ينكر حدوث المعراج، ويقولون: إن الحركة المبالغة في السرعة إلى هذا الحد الذي يجعله يصل من مكة إلى بيت المقدس ومنه إلى السمٰوات العلا في جزء من الليل أمر غير معقول بل محال؛ فإننا نستطيع أن نرد عليهم بأن قدرة العلم الحديث مكنت الإنسان من اختراق الفضاء والصعود إلى القمر، وها هم العلماء يستعدون للوصول إلى غيره من الكواكب مخترقين الفضاء أفتعجز قدرة الله خالق الإنسان والكون مالك الملك الذي يحيي ويميت عن مثل هذا؟!

وإذا كان العقل بتصوره القاصر يستبعد حدوث هذا وتمنع العادة أن يقطع الإنسان مثل هذه المسافة في هذه الفترة، وأن يخترق هذه الحجب وذلك الفضاء من غير واسطة آلة فإن ذلك يكون مستساغًا لو قلنا: إن ذلك من فعل بشر أيا كان ذلك البشر. لكن الإسراء والمعراج لم يكن بفعل محمد بن عبد الله ولا بإرادته وإنما كما يفيده النص القرآني على ما أشرنا قبل بمعرفة الله وقدرته، وقدرته - جل جلاله- لا تقف عند حد ولا يخضع في تصرفه في ملكه لسنن كونية، وإذا كان العلم مكن الإنسان كما قلنا من اختراق الفضاء بواسطة الآلة التي صنعوها بأيديهم فإن محمدًا صلوات الله عليه طوى الأرض واخترق الفضاء بواسطة ما أعده الله له وصنع الله فوق صنع البشر، وهو سبحانه إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكن. فإذا أراد لمحمد بن عبد الله الذي اصطفاه من بين خلقه وصنعه على عينه أن يكون رجل الفضاء الأول وأن يخترق تلك الحجب ويطوي هذه المسافات دون خضوع لنظريات علمية ولا اعتماد على آلات صناعية – كان لا بد من ذلك، وكان من واجبنا ما دمنا نؤمن بالله ورسالاته أن

نصدق بذلك ونؤمن به دون أن يداخل نفوسنا أدنى شك.

وأيا ما كان من كيفية الإسراء والمعراج؛ فإنه لا شك أن في هذه الرحلة المباركة من تكريم الرسول وعلو شأنه ما فيه، فقد أراه الله من آياته الكبرى ما يبهر العقول. ورجع من رحلته مشمولا بعناية الله متشحًا بالكمال. وقد حوت هذه الرحلة غير فريضة الصلاة كثيرًا من العظات العلمية والعبر التي هي بمثابة دروس عملية يأخذ منها الرسول عليه السلام الإرشادات والنذر فيبشر بها الصالحين أعمالا وينذر بها المعاندين العصاة.

وقد يكون من حق القارئ علي أن أشير له إلى قصة فتح المسلمين لبيت المقدس وخضوع هذه الأرض بما عليها لسلطان المسلمين منذ نحو أربعة عشر قرنًا حين فتح المسلمون في عهد عمر بن الخطاب الشام بقيادة عمرو بن العاص، وقد كانت تحت سلطان الروم. ثم دخل أمير المؤمنين عمر بنفسه مدينة القدس، وكتب لأهلها عهدًا أمنهم فيه على أنفسهم وعلى أموالهم وعلى كنائسهم وصلبانهم، ويقول في عهده هذا:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل (ايليا) من الأمان. أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم.. لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها.. ثم وعد أهلها استجابةً لرغبتهم ألا يسكنها معهم أحد من اليهود.

ثم اتجه إلى بيت المقدس حتى دخل كنيسة القيامة، ولما حان وقت الصلاة رفض أن يصلي داخل الكنيسة وقال: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدي وقالوا: هنا صلى عمر!!

ثم قال للبطريق: أرني موضعًا أقيم فيه مسجدًا؟ فأشار إلى الصخرة، وأشار عليه أن يبني فوقها المسجد. وكانت الصخرة غارقة في تراب كثيف وأقذار وأوضار. فطهر المسلمون مكانها وأقاموا المسجد.

وبقيت كنيسة القيامة إلى جوار المسجد الأقصى في ظل العروبة والإسلام طوال هذه القرون العديدة تؤدي رسالتها الدينية في أمن وسلام وعزم واطمئنان دون أن يعبث بالكنيسة أحد أو يسيء أحد من المسلمين معاملة أحد. حتى كانت هذه المأساة التي شاء الله أن تكون في عصرنا ليثوب إلينا رشدنا بعد أن لعبت بنا الأهواء وفرقت بنا السبل.

وإن المسجد الأقصى الذي دنسته أيدي الصهاينة، وعملوا على إحراقه كما عملوا على إبعاد أهل فلسطين الأصليين. هذا المسجد نوه النبي ﷺ به، وبين أن الصلاة فيه بخمسة آلاف صلاة، وأنه أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال.

الإسراء والمعراج دراسة دينية علمية

بقلم: الأستاذ/ محمد أحمد بدوي

تعــود ذكــرى الإسراء والمعــراج في الــسنين الأخيرة وسط انتصارات ما يسمى بغزو الفضاء. وآخر هذه الانتصارات نزول الإنسان على سطح القمر، ودوران سفن الفضاء حوله، وعودتها آليًّا ويتحكم مقتدر من الأرض، كما تعود هذه الذكرى ومهبط الإسراء ومصعد المعراج إلى السماء في أيدي أعداء الله والإنسانية من الصهيونيين.

وإن المرء – مهما حاول بعض المفكرين إبعاد القرآن عن التعرض للمسائل العلمية – لا يستطيع أن يطرد عن ذهنه ما تستدعيه أخبار ما يسمى بغزو الفضاء، من التفكير في الإسراء والمعراج، كما لا يستطيع ذلك فيما تستدعيه ذكرى الإسراء والمعراج من التفكير في غزو الفضاء.

تداعٍ للمعاني متبادل وغير إرادي بين ما يسمى بغزو الفضاء، وبين الإسراء والمعراج. وقد وجه الإسلام إلى تداعٍ آخر متبادل، ولكنه إرادي بين النظر في السماء، وبين التفكير في عظمة الكون وعظمة خالقه. وذلك بالندب إلى قراءة آيات: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ حين ينظر المرء إلى السماء من الليل. وبالندب إلى التفكير في خلق السموات والأرض حين قراءة هذه الآيات. وشدد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك، إذ يقول: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها».

والتفكير في الآيات الكونية الذي وجه إليه الإسلام في الكتاب والسنة إنما هو إرضاء للتطلع النفسي للتفسير والفهم المغروس في نفوس البشر.

على أن جماعة من المفكرين المسلمين يرون – مع علمهم بآلية التداعي بين المعاني المتشابهة، ومع علمهم بفطرية الدافع إلى التفكير للفهم والتفسير، ومع علمهم بتوجيه القرآن الكريم إلى التداعي الإرادي بين الآيات القرآنية وبين ما تشير إليه من الآيات الكونية – هذه الجماعة ترى استبعاد تعريض القرآن الكريم للمسائل العلمية ابتغاء إثبات الموافقة بينهما لخدمة العلم والإيمان، أو المخالفة بينهما لخدمة الجهل. يريد هؤلاء المفكرون أن يجعلوا التفكير للفهم والتفسير بعيدًا تمامًا عن أي محاولة للربط بين القرآن الكريم والقوانين العلمية، ويرون أن القرآن لم يتعرض للمسائل العلمية صياغة لقوانينها، أو وصفًا لظواهرها، أو حتى إشارة إليها.

وأهم حجج المبعدين لهذه الصلة بين القرآن والعلم أن القوانين العلمية لا تثبت صيغها على وضع واحد، ويستدلون على ذلك بما كان قد أثير في وقت عن معنى قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَحَ

لَــوَاقِحَ﴾ من أنها تلقح الأزهار مما كان الخطأ فيه لغويًّا لا علميًّا.

وبعض هؤلاء المفكرين يستبطن الخشية على القرآن من العلم، وقد يحيك في نفوسهم ما يتعارض من القرآن في الظاهر مع القوانين العلمية، ولما يظهر لهم تأويله. وبعضهم يستبطن الخشية على العلم من القرآن. وهم يضيقون – ولهم الحق – بمن يستند إلى ذلك التعارض الظاهري في إنكار العلم والزراية به، والدعوة ضده مما يتسم بالسذاجة والجهل وانعدام المسؤولية.

ومما يحتجون به أيضا الخوف من إغراق بعض المفكرين في إخضاع الصياغات العلمية للصياغات القرآنية، وتكلف التشابه؛ بل الذاتية بين الصياغتين في كثير من المسائل هذا الإغراق الذي يغري به فرط الحماس الذي تثيره دقة القرآن الكريم في صياغة كثير من القوانين الاجتماعية والأخلاقية صياغات علمية دقيقة. ومن تعبيرات هؤلاء وأولئك أن القرآن الكريم كتاب هداية لا كتاب علم.

ومن المفكرين المغرقين في ربط آيات الكتاب الحكيم بالعلم ربطًا وثيقًا أستاذنا الشيخ طنطاوي جوهري رحمه الله. وقراءة تفسيره «الجواهر» – على إمتاعها، وفتحها لآفاق كان يجب أن يرتادها المسلمون – تبرر الحكم على صنيعه بالإغراق. وقد كتب كثير كتابات ممتعة لا تنقصها الروح العلمية ولا المنهج العلمي في العلاقة بين القرآن والطب، وبينه وبين علم النفس، وبينه وبين الفلك.

ولست بصدد محاكمة الفريقين على الموقف المبدئي لكل منهما من علمية القرآن الكريم؛ لكني سأشير فقط إلى ما يخص الإسراء والمعراج من آراء كل منهما مع بيان ما فيه من تجاوز.

إن القول بعلمية القرآن لا يعني لدى القائلين به أن القرآن كتاب هندسة أو كتاب فلك، ولكنه يعني أن القرآن إذا تعرض لآية كونية أو إنسانية لفرض الهداية إلى عظمة الخالق أو إلى الصراط المستقيم في السلوك قد تبلغ عباراته من الدقة مبلغ الصياغات العلمية الحديثة.

وقد تشير إلى الحقائق العلمية أو تتمشى معها ولا تصادم بها، أو لا تضع الحوائل في طريقها، أو تمهد الطريق للوصول إليها، ناهيك بما في القرآن من حث على العلم، وتقدير للعلماء، والنهي على إهمال الفكر والتفكير والتعقل، وبما فيه من تأصيل للمنهج العلمي كما صاغه العلم الحديث.

فالخطأ ليس في القول بعلمية القرآن بهذا المعنى، ولكن الخطأ في عدم اتخاذ منهج سليم لا يعرض القرآن الكريم لأن يتأثر بتغيير الصياغات للقوانين العلمية.

ويتلخص هذا المنهج في تفسير القرآن الكريم على ضوء العلم الحديث – فيما نرى – في أن ما نصل إليه ونفهمه من القرآن الكريم هو صياغة أو إشارة أو عدم تعارض أو اتباع لحقيقة علمية. ولا ندعي أن ما نفهم هو مراد الله تعالى على الحقيقة، كما كان يدعي بعض الأقدمين، وكفر بعضهم بعضًا بسبب ذلك. فإذا تغيرت الصيغة العلمية كان الخطأ في فهمنا لمراد الله تعالى من آياته لا لمراد الله تعالى في ذاته.

ومتى اتبع هذا المنهج انفتح باب من

الدراسات الإسلامية العلمية مما يضع الأساس السليم لانطلاقة علمية من فروض إسلامية في الكون والحياة انطلاقة تأخرت بغير مبرر فتأخرنا عن الأمم بتأخرها.

إن الفريق الأول يريد أن يفسر الإسراء والمعراج بعيدًا عن استصحاب أي معلومات عما اكتشف العلم من حقائق، لا سيما ما يتعلق منها بما يسمى غزو الفضاء. ولا أدري أهذا الفريق إذ يرفض ما يمكن أن يقال عن هذا الموضوع في عصر العلم، يقبل كل ما قبل فيه في عصور الجهل والخرافة. أي أغلال يريد أن يكبل بها هؤلاء الفكر الإسلامي عن الانطلاق العلمي من مواقف إسلامية، وفروض قرآنية يكمل، ويسند، ويغني الانطلاق العلمي من المواقف والفروض المستخدمة حاليًّا.

أما الفريق الثاني أو جزء منه فيحاول عقد مقارنة ساذجة بين الإسراء والمعراج، وبين ما يسمى بغزو الفضاء، تحت إغراء شديد من المشابهة الظاهرة بين صعود النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إلى السماء وبين صعود سفن الفضاء إلى القمر والكواكب القريبة من الأرض، ولهؤلاء نقول: أين القمر؟ بل وأين أبعد كواكب المجموعة الشمسية (بلوتو) من ذلك الكون الواسع؟ وأي فضاء ذلك الذي يتكلمون عن غزوه؟ وما هو ذلك الغزو؟ من المنتصر ومن المهزوم؟

يحاول البشر في القرن العشرين أن يبعدوا عن الأرض وأن يخرجوا من قبضة جاذبيتها بما آتاهم الله من نعمة العلم بقوانينه الكونية. وقد أفلحوا؛ لكن الخالق أغزى نبيه محمدًا ﷺ. فضاء كونه الأعلى غزوًا حقيقيًّا لا يقاس به ما يزعم البشر أنه غزو للفضاء، وبطريقة إذا قيست بها طرق البشر كانت قدرة البشر صفرًا. ولا يعني ذلك أن نقلل تقليلا ساذجًا من القدرة البشرية الفائقة إذا قيست اليوم بما كانت عليه بالأمس، أو إذا قيس ما يمتلكه منها فريق من البشر بما يمتلكه فريق آخر.

إن رحلات «زوند وسيوز» و«مارينر» و«أبوللو» لعمل عظيم بالنسبة لما كانت عليه قدرة البشر بالأمس القريب. أما رحلة النبي محمد ﷺ إلى السماء فهي معجزة لا يتطلع إلى عشر معشارها أوسع الخيالات العلمية جموحًا. والعلم الحديث بكل اتساعه وعمقه لم يقدم إلى الآن أي طريقة لتصور صعود النبي ﷺ إلى السماء.

إن تفكير المسلم ليهدف من ضمن ما يهدف إليه في عمليات التداعي إلى معرفة: هل التشابه بين الإسراء والمعراج وبين صعود سفن الفضاء تشابه ظاهري أم تشابه حقيقي بمحاولة تصور الأمرين على السواء.

ويغري بالقول أنه تشابه حقيقي انسياقًا إلى تصيد ما يبدو أنه يؤيد وجهات نظرنا من أحداث جديدة. فلما جاءت محاولات غزو الفضاء تلقفناها لنستدل بها على صدق واقعة الإسراء والمعراج وهو استدلال في غير مطلبه. لأن واقعة الإسراء والمعراج لم تكن لتنتظر قرابة الألف والخمس مئة عام لوقوع ما يصدقها. فالواقعة ثابتة بطرق لا يرقى إليها الشك، ولا تبعد عن المناهج المعتمدة للاستدلال.

كما يردنا إلى القول بأن التشابه بين الإسراء

والمعـراج تـشابه ظـاهري حقـائق علميـة لا يمكـن إغفالها وتجدر الإشارة هنا – دون تفصيل – إلى أن الإسراء يمكـن تـصوره في ضـوء الحقـائق العلميـة المتاحة. أما المعراج فجد مختلف.

لما جاء الإسلام، أطلق تصور الناس عن الزمان والمكـان مـن قيـوده إلى أوسـع مـدى يمكـن أن يبلغـه الخيال البشري، في ذلك العصر، وفي العصور التالية حتـى عـصرنا عـصر الـصواريخ.. وقـدم الإسـلام التمهيد الضروري للتصور الحديث للزمان والمكان. ولقـد كـان فرعـون يطلـب صرحًـا يبلـغ بـه أسـباب الـسمٰوات ليطلـع إلى إله موسـى ممـا يـدل عـلى مـدى التصور البشري في ذلك الوقت لاتساع الكون.

وفي اتــساع المكــان قــال القــرآن الكــريم: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾. وقـال النبـي ﷺ: إن كـل سـماء بالنـسبة إلى تاليتهـا كحلقة ملقاة في فلاة. وفي اتساع الزمان قال القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾. وقال: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾. ولعل المبعدين للقرآن كانوا يريدون أن يقول الباري سبحانه: خمسين ألـف سنة نوريـة ليعترفـوا بوجـود علاقة متبادلة بين القرآن والعلم.

لقـد وضـع الإسـلام البـشر عـلى أول الطريـق لتقريـب اتـساع الزمـان والمكـان إلى تـصورهم. وأوصل العقل البشري إلى المرحلة السابقة مباشرة والممهـدة التمهيـد الـضروري للمراحـل الحاليـة والتاليـة في تـصوره للزمـان والمكـان. وجـاء الفلـك الحـديث فوجـد العقـل البـشري قـد خطـا أولى الخطوات فخطا به خطوات أخرى واسعات.

إن اتساع الكون قد أصبح الآن فوق التصور، بحيث إن تسمية رحلات الفضاء غزوًا للفضاء أمر أبعد ما يكون عن الدقة العلمية؛ بل هو مجاز منقطع الصلة بالحقيقة.

وبغـير لجـوء إلى الأرقـام التـي تـصف اتـساع الكـون، والتي تـصيب بالـدوار حتى عقـول جبابرة علـم الفلك، يمكننا أن نقـول: إن رحلات الإنسان إلى الفضاء لـن تبلغ في المـدى القصير، ولا في المـدى البعيـد جدًّا – بحسب مـا أتيح إلى الآن من الحقائق العلميـة – إلا كسرًا ضئيلا جدًّا مـن أبعـاد الكـون. ولـن تـصل رحلاتـه المقبلـة تبعًـا لأوسـع الخيـالات العلمية انطلاقًا إلى أبعـد مـن كسر ضئيل جدا مـن المسافات التي وصلت الرياضة الفلكية إلى حسابها.

إن غزاة الفضاء الشجعان والمخططين لهم ليس عندهم من الحقائق العلمية إلى الآن ما يمد أملهم إلى ارتيـاد أجـرام أبعـد مـن الـشمس وبنيهـا (الكواكـب) وأحفادهـا (الأقـمار). أمـا بـاقي النجـوم – وشمـسنا واحدة منها – فهي من البعد عنا بحيث إن الصواريخ – حتى بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة – تعتبر وسيلة بدائية جدا، وغير عملية على الإطلاق لارتياد أفلاكهـا. وإذا كـان التمثيـل يقـرب المعنـى فـإن المـشي بـسرعة النملـة وسـيلة متقدمـة جـدًّا لعـابري القـارات وذات كفايـة عاليـة جـدا في هـذه المهمـة، إذا قيـست بوسيلة الصواريخ بالنسبة لغزاة الفضاء.

إن أقـرب الأجـرام الـسماوية إلى الأرض هـي أفـراد أسرة الـشمس. وأقـرب أجرامهـا إلى الأرض القمـر. والوصـول إليـه بـسفن الفـضاء يـستغرق ١٢

ساعة تقريبًا إذا سار إليه الصاروخ في خط مستقيم، وبسرعة منتظمة (٢٠,٠٠٠ ميل في الساعة) وهو لا يسير إليه في الواقع: لا في خط مستقيم، ولا بسرعة منتظمة. ويلي القمر في البعد عن الأرض كوكب الزهرة أثناء توسطها بين الأرض والشمس. وبعدها المتوسط عن الأرض يبلغ ٢٦ مليون ميل، يقطعها الصاروخ في خط مستقيم وسرعة منتظمة في ٥٤ يومًا تصل في الواقع إلى ما يزيد عن الأربعة أشهر. وأبعد أخوة الأرض عنها بلوتو الذي يصل إليه الصاروخ بالشروط السابقة (الخط المستقيم والسرعة المنتظمة ٢٠,٠٠٠ ميل في الساعة) في إحدى وعشرين سنة وربع سنة. ويصل إليه ضوء الأرض المنعكس من الشمس في خمس ساعات ونصف ساعة.

وقد ضرب العلامة الدكتور أحمد زكي مثلا لأبعاد أسرة الشمس فيما بينها فقال: إذا كانت الشمس قرصًا قطره أزيد من ثلاثة أرباع المتر؛ فإن عطارد يكون عدسة على بعد ٣٦ مترًا من القرص، وتكون الزهرة حبة فول على بعد ٦٧ مترا منه، وتكون الأرض حبة فول أكبر قليلا من الزهرة على بعد ٩٣ مترا، ويكون المريخ كسمسمة تبعد عن القرص ١٤٢ مترا، ويكون المشتري كبرتقالة على بعد ٤٨٢ مترا، ويكون بلوتو حبة فول على بعد ٣٦٧٠ مترًا.

وبالرغم من هذه الأبعاد الشاسعة فإن أفراد الأسرة الشمسية تبدو متلاصقة بمقارنة أبعادها فيما بينها، وبمقارنة أبعاد النجوم بعضها عن بعض وعن المجموعة الشمسية. ولعل تلاصق أفراد المجموعة الشمسية هو نتيجة لشعورها بالوحدة القاسية وسط مجموعات النجوم. فإن أقرب مؤنس لهذه الأسرة من غير أفرادها هو ألف قنطورس. وهو أحد نجوم كوكبة قنطورس التي ترى في السماء في نصف الكرة الجنوبي. وبعده عن الشمس ٤,٣ سنة ضوئية. ويقول العلامة الدكتور أحمد زكي: إذا كانت الشمس نقطة حبر على هذه الورقة فإن ألف قنطورس نقطة أخرى تقع منها على بعد أربعة أميال.

إن حساب زمن الوصول إلى ألف قنطورس من أي فرد من أفراد أسرة الشمس بسرعة الصاروخ لهو أمر بالغ السخف. ولو فكرنا في حساب زمن الوصول إلى القمر من الأرض بسرعة السلحفاة لكان تفكيرنا هذا أقل سخفًا من التفكير في زمن وصول الصاروخ إلى ألف قنطورس، لأنه سيصل إليه في مئة واثنتين وأربعين ألف سنة.

ومن يريد أن يعرف بعد ألف قنطورس عن المجموعة الشمسية فما عليه إلا أن يضرب سرعة الضوء (١٨٦,٠٠٠ ميل في الثانية) في عدد الثواني الموجودة في ٤,٣ من السنين ليجد أمامه الرقم ٢٥ وأمامه ١٢ صفرا أي ٢٥ مليون مليون ميل. فلو زال ألف قنطورس من الوجود أو انطفأ فجأة لاستغرق آخر شعاع صدر منه ٤,٣ من السنين كي يصل إلينا لينعي غياب هذا الجار القريب، مما يجعلنا نهز أكتافنا قائلين: يرحمه الله.

ومن النجوم ما يصل إلينا ضوؤه في عشرات السنين، ومنها ما يصل في مئاتها، ومنها ما يصل في آلافها ومنها ما يصل في ملايينها، ومبدع السموات يقول: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾.

إن تسمية رحلات الفضاء غزوًا للفضاء

تجاوزا نستسيغه لإرضاء غرورنا. فإن السفن التي دارت حول المريخ أو حتى التي اتخذت مدارًا حول الشمس لم تقطع من مسافات الكون إلا نسبة مماثلة لما يقطعه المتحرك بمقدار سنتمتر إلى القمر. ونكرر أننا لا نبخس العقل البشري خطواته الواسعة بالنسبة لما كان يتحركه من قبل في كشف المجهول.

إن غزو الفضاء وراء المستعمرة الشمسية يتحقق في ظروف خاصة مستحيلة عمليًّا، مثل أن يصعد في الفضاء جماعات كبيرة من العلماء وفي سفن كبيرة تسمح بتزواجهم وتسلسل الأجيال فيهم، ويكون من نصيب الجيل المكمل للخمسة آلاف من جيل بدء الرحلة الوصول إلى كوكب من كواكب ألف قنطورس – إذا كان له كواكب. لأن ألف قنطورس ملتهب، والقرب منه فوق حد محدود يكفي لاحتراق أي مادة نعرفها على الأرض وتحويلها إلى بخار. وقد يتيسر مثل هذا المشروع لو أخذنا الأرض نفسها كسفينة فضاء وسرنا بها في اتجاه النجوم.

ومن أحلام العلماء في النوم أو في اليقظة أن يرسل الإنسان أو غيره كرسالة لاسلكية بأن يوضع في جهاز إرسال لاسلكي ليفتته إلى بروتونات والكترونات بل جسيمات منها ثم يستقبله جهاز آخر يجمع هذه الجسيميات مرة أخرى على الهيئة التي وضع بها في جهاز الإرسال.. ويا ويل هذا الطرد إذا لم تنضبط له المحطتان انضباطا تاما.. إن تفرقه – إذن – لن ينتهي أبدا إلى اجتماع.

وإذا نجح البشر في صنع الجهازين.. وإذا نجحوا في وضع جهاز الاستقبال في مكانه بطريقة السفر الجماعي بعد آلاف الأجيال فإن الموجات المرسلة من جهاز الإرسال قد تحتاج إلى عشرات السنين بل إلى آلافها بل إلى ملايينها للوصول بالطرد الآدمي اللاسلكي إلى بعض النجوم إن طال به العمر.

وهنا يستيقظ العالم مذعورًا ليقول: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾. وصدق الله العظيم.

هذا والإسراء والمعراج رحلتان متمايزتان، لم يتح التمييز الدقيق بينهما إلا في العصر الحديث، ويفضل العلم الحديث، وما حقق للبشرية من معجزات. فرحلة الإسراء رحلة أرضية جوية، وبتعبير حربي رحلة من الأرض للأرض. أما رحلة المعراج فرحلة سماوية بكل معنى لكلمة سماوية.

وإذا كانت سرعة الصواريخ قد قربت لنا تصور كيف سارت رحلة الإسراء فإن سرعة هذه الصواريخ لن تساعد على أن نتصور كيف سارت رحلة المعراج. وحتى سرعة الموجات اللاسلكية لن تساعد على تقريب هذا التصور.

ويبقى على المتكلمين في علمية القرآن بمنهج وبغير منهج ألا يحملوا الإسراء والمعراج عبء الدلالة على علمية القرآن إلا بالقدر الذي أشرت إليه في رحلة الإسراء.

وإذا تداعت معاني السفر بين الأجرام السماوية حين يذكر الإسراء والمعراج، أو تداعت معاني الإسراء والمعراج حين يذكر السفر بين الأجرام السماوية، تداعيا آليا، أو بتوجيه من القرآن الكريم والحديث الشريف، فإن ألح أنواع هذا التداعي لهو وجود مهبط الإسراء ومصعد المعراج

في أيدي أعدائنا وأعداء الله وأعداء الإنسانية.

إن مصيبة الإسلام باحتلال الصهيونيين لبيت المقدس لهو من العظم والفداحة بحيث نجد أنفسنا منساقين إلى وصفه بالتاقيت. وإلى قياس هذا الاحتلال على احتلال الصليبيين له في القرنين السادس والسابع الهجري. ذلك الاحتلال الذي انتهى بالجلاء حين توحد العرب. وذلك الأمل لا يرجع عندنا كما يعتقد الصهاينة إلى قدر غيبي، بل هو نابع من تصميم على العمل لإزاحة هذا الكابوس بجد لا يعرف الهزل، وعمل لا يعتريه الملل.

وإذا كانت مؤتمرات القمة وغيرها من المؤتمرات الإسلامية تتمخض عن مواقف متخاذلة فرضتها عوامل لا حصر لها، فإن هذه المواقف قد وضعت المسلمين أمام عوامل تفرقهم وضعفهم، ودلت على ما يجب أن يلتمس لها من علاج. فضلا عن أنها بينت للذين يعلقون على التجمع الإسلامي الآمال أنه لا يزال أمامهم عمل كبير للتخلص من أسباب تخلفهم الديني والدنيوي.

وإن التعلل بأن الله لا يرضى لبيت المقدس أن يظل في أيدي الصهاينة، وتحميل آيات سورة الإسراء ما لا تحتمل من الاتكالية الخرقاء، لهو صيغة أخرى لقول الصهاينة لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾. إنه لن يظهر أبدا للعالم غير المسلم ما إذا كان ربنا راضيًا عن ذلك الاحتلال، أو غير راض إلا إذا غيرنا بأيدينا الوضع لتصدق كلمة الله في سورة الإسراء: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۘ﴾. أي إن عدتم إلى الإفساد بعد المرتين المذكورتين في الآيات السابقة عدنا عليكم بالإذلال.

وإن حتمية أن يغلب مئة مليون عربي المليونين من الصهيونيين لا ترجع إلى كونهم مئة مليون في العدد، فإن في ذلك مدا آليا في حبال الاستعداد، وتمهيدا ذهنيا للتكاسل، ولكن هذه الحتمية ترجع إلى كونهم مئة مليون يعملون إمكاناتهم المتاحة بكفاءة، ويحصلون من الإمكانات الأخرى بوعي بالزمن، وبأبعاد المعركة، وبسرعة العصر.

لقد كان تضييق تصور وسائل النصر، وحصرها في الاستعداد العسكري، والكثرة العددية هو سمة الاستعداد السابق على ٥ يونيه سنة ١٩٦٧. ومن الدروس التي يجب أن تستفاد من النكسة ألا نقصر استعدادنا على هاتين الناحيتين فحسب؛ بل لا بد من أن يشمل الاستعداد التعبئة العلمية والخلقية التي تتمثل في النظام، وتقدير العلم، والإخلاص في العمل، وبذل الجهد في الإنتاج، ومحاربة الانحلال والتخلف، والثقة في القادة، واصطناع المنهج العلمي في حياتنا.

بقيت في هذه الدراسة كلمة. أن ذكر الإسراء في مطلع الآيات التي تحكي أكبر مرتين أفسد فيهما اليهود في العالم ليشبه أن يكون إشارة إلى أن ثمة علاقة ما بين المسجد الأقصى وبين إفساد اليهود في الأرض، يمكن أن نستنتج منها أن احتلال المسجد الأقصى سيكون أشد مظاهر عودهم للإفساد، وأقوى دواعي عود الله عليهم بالقهر والإذلال. إذ يقول جل وعلا: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۘ﴾. ولا أعني بهذا إلا أن عودة الله عليهم بالقهر لن تكون إلا بأيدينا وأخلاقنا وعقولنا وعلمنا.

* * *

من أقلام الشباب

محاولات مشؤومة لوضع التمثال في مصلى بـ«مثورا» وتطهيره بماء «غنغا»

منظمات هندوسية متشددة تعمل على كهربة جوّ البلاد، لكسب أكبر عدد أصوات الناخبين في الانتخابات الإقليمية القادمة

بقلم: الطالب عاذب أشرف الأعظمي

دهلي الجديدة (الوكالات):

في الأسبوع السابق، أعلنت بعض المنظمات الهندوسية المتطرفة وضع التمثال في مصلى العيد بـ«مثورا» الذي يصفه الهندوس بأنه هو مسقط رأس إلههم «كرشنا»، وإنما بني المسجد على أنقاض المعبد. وحدّدوا لتطبيق تلك الخطة المدروسة، السادس من ديسمبر الذي هُدم فيه المسجد البابري عام ١٩٩٢م. كما خطّطوا تطهيره بماء «غنغا» في ذلك اليوم انطلاقا من عقيدتهم.

وقد ادعت «راج شري جوهدري» - رئيسة منظمة المجلس الأعلى للهندوس - أن مصلى «مثورا» إنما هو مكان ولادة الإله «كرشنا»، وقد بنى الإمبراطور «أورانك زيب» ذلك المسجد على أنقاض المعبد إثرَ هدمه، ففي السادس من كانون الأول، سنحتفل بتطهير مولد إلهنا، بمياه الأنهار المقدسة، وبالتالي نضع تمثال الإله «كرشنا» نفسَ المكان الذي وُلد فيه.

ومن العجب أن ثمة بعض القياديين في حزب بهارتيا جانتا (B.J.P.) لم يُتخذ ضدهم شيء من الإجراءات - رغم بياناتهم الاستفزازية، على مواقع التواصل الاجتماعي-؛ فقد أدلى نائبُ كبير الوزراء في ولاية يوبي «كيشو برساد موريا» تصريحات مثيرة في تغريدته أمس، مفادها: «معبد أيودهيا العملاق جارٍ بناؤه، والآن نتقدم لبناء المعبد في مثورا».

ومن الواضح أن مثل هذه التغريدات والبيانات المسمومة غير المبررة التي ينفثها القياديون للحزب الحاكم (B.J.P.)، بحرية مطلقة، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الحزب الحاكم يريد استثارة الهندوس المتعصبين ضد المسلمين، لكسب أكبر عدد من أصواتهم باسم مسقط رأس الإله «كرشنا» في «مثورا».

وفي أعقاب هذا الإعلان المثير للجدل والنفور والتطرف، نشطت السلطات المحلية لتخييب آمال المتطرفين الذين خطّطوا وضع التمثال في المسجد، فقد عيّنت أكثر من ٢٠٠٠ من رجال الأمن في المنطقة، واتخذت إجراءات صارمة، للسيطرة على الجو المتوتر.

وقال بيان صادر عن الإدارة المحلية بـ«مثورا»: «إنه لن يُسمح لأي من المنظمات المتناغمة في الرأي والتعصب بتوتير جو المنطقة». هذا، وقد تفاعلت إدارة المسجد كذلك للتغلب على أي عنف يريده المتطرفون، ففي يوم الجمعة، فرضت على كل من يريد الدخول في المصلى لأداء صلاة الجمعة أن يقدم البطاقة الهوية الرسمية، لمنع دخول المتطرفين إلى المسجد.

وبالرغم من محاولاتهم الدنيئة لوضع التمثال في المصلى؛ فقد استطاعت الإدارة المحلية، إحباطَ هدفهم المشؤوم المخطّط لوضع التمثال، بفضل تظافر جهود السلطات المحلية ورجال الأمن، الذين تجولوا في أنحاء المنطقة، وقاموا بمسيرات منعت كل عمل من شأنه أن يثير الفتنة.

ويُذكر أن بعض المتطرفين حاولوا تكدير جوّ الأمن، واستطاعوا رفع شعارات غير مبررة، إلا أن السلطات المحلية حالت دون محاولاتهم، واعتقلت منهم خمسة أشخاص، وكان من المعتقَلين أعضاء منظمة الهندوتفا، وبعض العاملين الاجتماعيين، علاوة على ذلك اتخذت السلطات إجراءات مناسبة ضد بعض الناشطين على مواقع التواصل الذين تجرؤوا لتحميل منشورات قد تؤدي إلى تعكير جو المنطقة.

(صحيفة «ممبئي أردو نيوز» الأردية اليومية، مومبائي، ص:١، السنة:١١، العددان: ٣٣٤، ٣٣٧، السبت، الثلاثاء: ٢٨/ربيع الثاني، ٢/جمادى الأولى ١٤٤٣هـ = ٤-٧/ديسمبر ٢٠٢١م).

بقية إشراقة: المنشورة على ص ٥٦

ومتاعها غرور و خداع، وأن الدار الآخرة لهي الحيوان، ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]، و ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

نظرة صالحة نيرة نزيهة خيرة مترفعة عن سفاسف الأمور، وتحجر القلوب، وسوء الأخلاق، و فساد الطوية، وخبث النية، وعلى منجاةٍ كافيةٍ من البغضاء والشحناء، والكراهية والنفور، والحقد و الضغينة، والكبر والخيلاء، والصلف والعنجهية والغطرسة، تريد الخير لنفسها ولبني البشر، ولمن في الأرض جميعًا، ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

هذه النظرة الإيمانية هي الكفيلة بأن ترجع مياه العالم إلى مجاريها، وأموره إلى نصابها الحق، و يستتبّ فيه الأمن، ويسوده الرخاء، ويقوم الميزان بالقسط، وتمتلئ الأرض عدلًا وقسطًا كما ملئت جورًا وظلمًا، وينعم بالرفاهية والاستقرار، ويذوق الراحةَ بأنواعها، ويسعد المجتمع البشري بالاستقامة والحياة الطيبة التي أرادها له خالق السماوات والأرض حين خلق أول البشر، وسوّاه، ونفخ فيه من روحه، و أسجد له ملائكته. وهذه النظرة هي التي تشخص الداء والدواء، وتضمن علاج المشاكل - التي ترزح تحتها البشرية، وتكوى نارها- وتأخذ بيدها إلى ما فيه فلاحها وسعادتها.

والفارق بين النظرتين أن إحداهما نظرة دنيوية دنية حتى النخاع، والغة في النفعية والانتهازية، مستعدة لإنشاب أظفارها؛ بل وأسنانها في لحم الإنسان وعظمه لتحقيق بغيتها والوصول إلى مصالحها و مآربها؛ والأخرى رحيمة كريمة عفيفة محافظة على العهود والوعود، محتسبة أجرها عند خالقها وبارئها، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

* * *

نظرتان إلى الدنيا

نظرتان إلى الدنيا: حياتها ومتاعها وملذاتها: نظرة تراها هي البدو والنهاية وخاتمة المطاف، ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام:٢٩]، و﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [المؤمنون:٣٧]، و ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤]؛ نظرة كافرة يسيل لها لعابها، وتلهث لهاثًا محمومًا وراء إغراءاتها المثيرة، وشهواتها المؤججة، وزينتها الهدامة، وبهرجتها وزخارفها الفانية، وموديلاتها الجذابة الكاذبة الخادعة، بمختلف صورها وأنواعها، وسمومها وفنونها: دنيا عابرة عائمة، لاتعدل شروى نقير، ولاتزن جناح بعوض، ولاتساوي ذرة من ترابٍ، لا قرار لها ولابقاء لنعيمها؛ أكبر همها تسخير البشر، وكل ما في الكون لصالحها وأغراضها المشروعة وغير المشروعة تسخيرَ الحيوان الأعجم الذي لايكاد يبين، ولو أبان ونطق لقال: كفى ظلمًا وضيمًا واضطهادًا؛ نظرة لاتتعدى شهوات البطن والفرج، شهوات ممدودة و رغبات غير محدودة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس:٧-٨]، و ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦]، و ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم:٣].

ونظرة إيمانية ملؤها الثقة بالله تعالى، وشرائعه وأحكامه، وأوامره ونواهيه، و وعده و وعيده، وجنته وناره، وكتبه، و رسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، يغمرها اليقين بأن الدنيا خيال الطيف، أو ضيفٌ على شرف الارتحال، ونعيمها ظل زائل، وحياتها عارية تسترد، و وديعة تسترجع،

(البقية على ص٥٥)

أبو عائض القاسمي المباركفوري